المكتبة الصوفية

تحفة الأكياس
في حسن الظن بالناس

تأليف الولي العارف بربه
على بن محمد الشهير بالمصري

إعداد وتحقيق
الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح
المستشار
توفيق على وهبة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعـــة الأولـــي
١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦م
الناشـــــر
مكـتبة الثقـافـة الدينيـــة
٥٢٦ شـارع بـورسعيـد / القاهــرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٥٩٣٨٤١١ / فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الايداع	٢٠٠٥/١٤١١٨
الترقيم الدولي I.S.B.N	977 - 341 - 223 - 7

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،،،

فإن لله سبحانه وتعالى نعمًا تطالع الناس صباحهم ومسائهم وتحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

ومنها المنظور والمستور، والمعلوم والمجهول. تفيض عليهم بآثارها الملموسة فى أنفسهم وفى آفاقهم.

وفى طليعة هذه النعم التى أفاضها الحق تعالى على عباده نعمة الحياة والإيجاد، ونعمة الخلق والإمداد والإعداد، مما غدا به الإنسان أعظم آية من آيات الله فى خلقه، تشكل أروع أداة للدلالة على وجود الخالق البارئ المصور، وضرورة الإيمان والاعتراف بفضله، ووجوب التوجه إليه وحده بما وجب من حقه فى الإجلال والتقديس، وحتمية استشعار عظمته وسلطانه، وتعميق الخضوع له، والخشية منه.

وتأكيد الحب فيه، والولاء له، ووجدان الأنس به، والاسترواح بذكره، والشوق إلى لقائه، والسكينة إلى جواره.

تلك هى العبادة الواجبة لله سبحانه وتعالى. لا يجد الإنسان كيانه إلا فيها، ولا امتداده إلا بها، ولا وجوده إلا فى الالتزام بها قولاً وعملاً، أمرًا ونهيًا، خلقًا وسلوكًا، واقعًا وتطبيقًا. لقد غدا الإنسان للكون سيدًا فلا أقل من أن يمضى لله عبدًا، ولحق الله تابعًا..

إن الوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته لا يسعه إلا أن

يطيع ربه فى ولاء، لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب؛ بل إنه جميعًا من أعلاه إلى أسفله، يهتف فى البداية من عالم الأزل بلغة المقهور أمام عظمة القاهر.. وهتاف العابد أمام قدسية المعبود بما سجله الحق فى قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[1].

والإنسان وإن كان يساوق الكون في العبادة بفطرته فإنه ينبغي عليه أن يفوقه في العبادة منزلة، وأن يعلوه فيها درجات تتناسب وحقيقة الفرد، وتكوينه المتميز بالعقل الإرادة والاختيار والميول والنزعات والرغائب، وأن يكون لهذه العبادة الاختيارية نمطها الخاص الذي يواكب الفطرة.

إن العبادة حق الله على عباده، ما خلقهم الله إلا لها، ولا يرضى عنهم إلا بها. وما زاولوها، ومارسوا شعائرها فى إخبات وخشوع، وفى تذلل وخضوع، وخوف منه، يشفعه الرجاء، وتضرع إليه يحدوه الأمل، وعرفانا له بحقه عليهم وواجبهم نحوه، مستبقين فى حلبته، مسارعين إلى خيره .. إلا أبدلهم الله من الضيق فرجًا، ومن الشدة مخرجًا، ومن القلق اطمئنانًا، ومن الخوف أمنًا، ثم غفر زلتهم، وأقال عثرتهم، وقبل أوبتهم، ورحم ضعفهم، وجبر كسرهم، وأخلف لهم ما بذلوا، وضاعف لهم ما عملوا، ويسر لهم أسباب قبوله، وفتح لهم أبواب رضوانه، فجمع لهم أطراف الخير، وجعلهم فى شرف قربه وجواره.

والحق: أن السلوك إلى رب العالمين هو الشامة الدائمة التى بها يقف الإنسان من ربه على مكانته، متفاعلاً ماضيًا فى طريق الله الذى خطه له، وأرشده إليه، وهداه به ..

---

(١) سورة فصلت: الآية ١١.

والسلوك إلى الله سبحانه وتعالى ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود. وليس عند القلوب المؤمنة والأرواح الطيبة، والعقول الذاكية: أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه.. وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى..

والإسلام الحنيف قد حرص على إحاطة الإنسان بمناعات عقدية وخلقية وتربوية تحول دون أن يتأثر هذا الإنسان بالمغريات أو التيارات التى تناول من كرامته، أو تحط من مكانته.

كما زود الإسلام الإنسان بمضادات ذات قيم فعالة، تعالج ما قد يبتلى به من إصابات سلوكية تؤدى به إلى الهاوية، أو تنجم عنها أعراض وخيمة. ذلك لأن فى الإنسان «قابلة التأثر» وهو يملك «القدرة على التأثير».

فكان لابد من صيانة قابلية التأثر لديه، لكى لا يكون مجالاً رحبًا للمؤثرات الخارجية المنافية للفطرة السليمة، والذوق الرفيع والكمالات الإنسانية ولأن الإنسان يملك القدرة على التأثير فيما حوله أصبح من الضروري أن يظل هذا الإنسان سليمًا لتظل تأثيراته سليمة وصحيحة.

فالنظرة الشمولية التى يرتكز عليها الفكر الإسلامى فى تقويم السلوك الإنسانى تقرر: أن هذا السلوك ينعكس لا على حياة الإنسان نفسه فحسب، بل على الموجودات كافة بشكل مباشر أو غير مباشر. إذ ما من طاقة إلا ولها أثر؛ لذلك اهتم المنهج الإسلامى بالسلوك باعتباره العامل الحاسم.

والإسلام يعتمد فى توجيه السلوك البشرى على موضوعية الأخلاق وفطرية البصيرة التى تدركها فى بساطة ونقاء، وفى الوقت نفسه تزود الإنسان بالطاقة والقدرة وتنفخ فيه العزيمة والإرادة للوفاء بمقتضياتها، وتتدخل فى الأحوال التى تلتبس فيها الأمور على هذه البصيرة الفطرية أو التى تغلب فيها الشهوات والرغبات البشرية لتجلو وجه الحق، وتبرز معالم الخير والبر.

ومن هذه الناحية تلبس الأخلاق ثوبها الإسلامى، وتصطبغ بالصبغة الإسلامية، ويصبح الوفاء بمقتضاها والتمسك بقواعدها مبنيًا على المعنى القائم بالعقيدة. بحيث يجد الإنسان فى امتثال هذه الأخلاق توافقًا بينه وبين عقيدته يبعث فى نفسه والرضا والاطمئنان والاستقرار.

ولاشك أن المسلمين الأولين قد طفقوا منذ فجر الإسلام يتأملون فى المثل القرآنية العليا ليتخذوا منها نبراسًا يضيئون به أعماق قلوبهم ليستكشفوا فى دخائلها عناصر الأحوال الروحية التى شاهدوها ممثلة فى نبيهم بعد أن ظفرت بالرضا الإلهى العميم.

ومما لا سبيل إلى الريب فيه: أن المصدر الأول الذى أرشد المسلمين إلى هذا الصراط السوى وأنار لهم طريق العروج إلى رب العالمين هو القرآن الكريم والأحاديث القدسية .

وأن المصدر الثانى هو أقوال النبي الجليل صلوات الله وسلامه عليه وأفعاله الظاهرية وأحواله الباطنية التى يرونها ببصائرهم ويستشفونها بقلوبهم، فيتخذون منها مثلهم ونماذجهم الرفيعة، وشموسهم الساطعة التى تضئ لهم سبيل الحياة.

فأجلاء الصالحين قد اتخذوا من سلوك النبي ﷺ نبراسا استضاءوا به، فاستخلصوا من حياة الرسول الكريم ﷺ سلوكا تسامى بهم .. وإن الاقتداء برسول الله أساس أصيل لسلوك المؤمنين إلى الله.. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(1).

فلا شيء يفيد الإقناع واليقين كرؤية الشيء ماثلا متحققا، وتحقق السلوك إنما يتم عن طريق وجود القدوة أو المثل الكامل، ولقد كان رسول الله ﷺ حافز لمن يريد السلوك الحق.

ولا يخفى « أن وجود نموذج أخلاقى بشرى هو أعظم حافز لمن يريد أن يبوئ الأخلاق فى نفسه محلا كريما، أن يبذل جهده وأن يظل على جهاده. لأن أمله فى تحقيق غايته ليس مستحيلا. كما أنه ليس بعيدا، والتهمة فى عدم تحقيق هذه الغاية لم تعد فى استحالتها أو بعدها، ولكن فى قصور الجهد المبذول من أجلها.

وذلك يدفعه إلى بذل المزيد من الجهد، سواء حقق فى نفسه المثل الأعلى أو قاربه فإن إنسانا يجعل هذا غايته، لهو إنسان عالى المنة، عظيم الخير والبر وكل إنسان يستطيع أن يحقق فى نفسه قدرا أكبر من التآسى بهؤلاء المثل البشرية العالية، يصبح بدوره أسوة وقدوة لمن لم يبلغ مبلغه، وتصبح هناك سلسلة من الأسوة الحسنة تتفاوت درجاتها فى مراقى الكمال.

وفى كيفية السلوك إلى رب العالمين يذكر الحكيم الترمذى وهو من علماء القرن الثالث الهجرى: «أن الطرق شتى وطريق الحق مفردة، والسالكون طريق الحق أفراد ، ومع أن طريق الحق

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

مفردة، فإنه تختلف وجوهه باختلاف أحوال سالكيها من اعتدال المزاج وانحرافه، وملازمة الباعث، وقوة روحانيته وضعفها، واستقامة همته وميلها، وصحة توجهه وسقمه››.

وكلام الحكيم الترمذى هذا يضع الباحث أما مقولة تتضمن: ‹‹أن السلوك هو كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل وما يتخذ من اعتقاد أو قصد››.

فالسلوك الإنسانى على اختلاف أنماطه، وتباين أغراضه وأوصافه يعتبر سلسلة من العمليات المتتابعة المتتالية، وبشكل يجعل من مجموعها صيغة فعلية واحدة، تؤدى غرضها بعد أن تتجسد حقيقة سلوكية.

فالفعل - أى فعل يقوم به الإنسان - يمر بمراحل متعددة، تبدأ من داخل الذات الإنسانية، وتنتهى إلى خارجها، وحتى تكتمل عناصر وجوده النفسى، والفكري ليتخذ مرحلة السلوك الفعلى فى الحياة، ويقوم على : ‹‹أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة››، فالفعل يتحدد تخطيطه، ويكتمل تصوره، وتصور الغاية المستهدفة له، قبل أن يحتل موقعه فى الحياة العملية.

ولأهمية الفعل والسلوك الإنسانى. اعتنى الإسلام بتنظيم عناصر الفعل والسلوك ووضع المقاييس والموازين القادرة على جعل الفعل محققا للخير والسعادة.

وبإنعام النظر فى مجمل نص الحكيم الترمذى الآنف الذكر يلاحظ أن السلوك الإنسانى يعتمد على أمور أهمها : ‹‹المثير والغاية والنية والقصد››، ولكل من هذه الأمور أثره فى توجيه السلوك والفعل الإنساني..

ويأتي اهتمام الإسلام وتركيزه على بناء الذات الإنسانية من داخلها قائما على إيمانه بأن أنماط السلوك إنما هي تعبير عن محتوى الإنسان الداخلي، فإن لم تشكل الذات الداخلية، وتبنى بناء خيرا وسليما لا يمكن أن يكون البناء الخارجي إلا هيكلا خاويا، وشباكا من النفاق والوباء التي تتربص بالإنسان للإيقاع به.

لذلك جاء قوله تعالى معبرا عن هذه الحقيقة ومحذرا منها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[1].

أما سر الموقف الإسلامي هذا وعدم إقراره بتمثيل الفعل للإنسان الفاعل إلا إذا قام على قصد ونية فلأن الفعل ما هو إلا نتاج موقف إنساني داخلي.

ولم يأت وجوده كفعل متجسد إلا بعد أن اكتمل وتحددت غايته في داخل الإنسان كنتاج لعوامل ذاتية أساسية هي:

١- المعرفة بالفعل وتصور أبعاده وغاياته.

٢- وجود الميل والرغبة النفسية لهذا العمل وحصول قناعة بتطابق وحصول قناعة بتطابق الفعل مع غاية النفس ومراميها المطلوبة.

٣- اتخاذ القرار الإرادي الحاسم بإحداث الفعل وتحريك مختلف القوى الجسدية والفكرية والنفسية للشروع بالفعل.

فانطلاقا من هذه الحقيقة بنى الإسلام موقفه المؤمن بأن روح القصد هو روح الفعل وحقيقته.

ويلاحظ الإسلام باهتمام بالغ العلاقة بين هذا والوعاء

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

والشكل المنظور للفعل بين القصد والغاية، ليتأكد من تطابقه مع العناصر الذاتية التى يصنع منها الفعل بحيث يأتى الفعل صياغة حية وتعبيرا أمينا عن الدوافع والمقاصد.

فإن مارس الإنسان أفعاله ومواقفه على هذا الأساس النزيه المخلص، كان الفعل يمثل حقيقة الذات الإنسانية وكان فاعله يستحق المجازاة عليه، لأنه يمثل موقفه وإرادته.

وبهذه التوعية يريد الإسلام أن يجعل سلوك الفرد المسلم قائما على أساس الاختيار اليقظ الواعى، بعيدا عن العادة الآلية التى تجعل من السلوك الإنسانى سكونا رتيبا، لا يعبر عن وعي الإنسان وارتباطه بخالقه

وكم هو سهل هدم الموقف الإنسانى والانسحاب من الفعل مهما يكن خيرا وضخما عندما يبنى هذا الفعل على أساس من الآلية والاعتياد بعيدا عن الوعى والقناعة والاتجاه الذاتى اليقظ.

لذلك حرص الإسلام على تثبيت قواعد الفعل فى أعماق الذات الإنسانية ليضمن الاستمرار على فعل الخير وبناء الحياة الإنسانية.

إن تحديد أشكال السلوك التى ينبغى أن تسلك وتعيين الدافع الذى ينبغى أن يدفع إليها. لئن كانت المشكلة الأساسية التى زلت فيها عقول البشر.سوأتى فيها الوحى بالحل الأمثل، إلا أنه ثمة مشكلة أخرى متعلقة بها ولا تقل عنها أهمية، وهى المتمثلة فى السؤال التالى : كيف يصبح الدافع مؤديا فعلا إلى السلوك العملى؟

ومن البين أن هذه المشكلة تزداد أهمية بازدياد أهمية الصلة بين الدافع والسلوك حتى تبلغ الذروة فى التصور

الإسلامى باعتبار أن تلك الصلة صلة عضوية بين العقيدة والسلوك.

لقد بنى كثير من الفلاسفة والمفكرين نماذج نظرية من السلوك الإنسانى الفردى والجماعى كالجمهورية التى تصورها أفلاطون، والمدينة الفاضلة التى بناها الفارابى، وربما كانت بعض البناءات حاملة لعناصر من الحق.

إلا أن أصحابها لم يوفقوا فى كثير من الأحيان فى توفير العنصر النفسي الذى يجعل الناس يعيشونها واقعا. لا على المستوى الفكري فقط.

ولقد طرح « كانت » هذه المشكلة بشكل جدي ، حيث وضع السؤال التالى : «إذا كان الواجب معنى عقليا صرفا فكيف يمكن أن يكون دافعا نفسيا إلى العمل»؟ ثم انتهى فى الإجابة إلى أن عاطفة الاحترام هى الواسطة التى تجعل الواجب دافعا إلى العمل.

ولكن بيانه هذا يبقى مغرقا فى التجريد ولا يطرح القضية طرحا عمليا مفيدا..

أما الإسلام فإنه لم يكتف برسم المنهج السلوكى وبيان الدافع الذى ينبغى أن يؤدى إليه، ولكنه عمل على تهيئة النفوس وإعدادها إعدادا علميا لتتحول المبادئ النظرية إلى واقع عملى، وبالتالى ليرتبط الدافع بالسلوك ذلك الارتباط المتبغى.. ومن الأساليب التربوية المتبعة فى ذلك:

أولا : التركيز على تقوية التصديق بالمفاهيم المتعلقة بالعقيدة والعمل لتعميق تلك المفاهيم حتى تبلغ مرحلة السيطرة على النفس، فتفيض الجوارح عندئذ بالسلوك فيما يشبه التلقائية.

يقول الحكيم الترمذى فى شأن الذين فاضت جوارحهم بالسلوك: « كلما بدا لهم أمر أو خطر ببالهم لم يتمنوا ولا أطعموا أنفسهم، وانتظروا ما يبرز لهم من السطور فى اللوح السابق قبل خلق السموات فسلموا لربهم، وانقادوا لحكمته كالعبيد فعاشوا فى الدنيا بأرفع الدرجات، وماتوا بروح وريحان، ولقوا ربا غير غضبان ، رضوا عن مولاهم ، فرضى عنهم، فأيدهم فى الدنيا بروح منه، وفى الآخرة قربهم ولطف بهم﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

استنارت قلوبهم باليقين فصارت أمورهم فى نوائبهم كالمعاينة كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر، أو خوف أو أمن أو ذل أو عز أو بلاء أو نعمة، حرقت أبصار قلوبهم، فأبصرت فى لحظة أن هذا الأمر قد كان فى اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن.

وهو حكم الله علينا، لم يكن فيهم من الشهوات ولا من الهوى من القوى ما يثقل عليهم قبوله من ربهم، وتلقوا أمره بالهشاشة وطلاقة النفس وبشر الوجوه، فهم الراضون والصابرون.

وتحصل هذه الدرجة من التصديق برؤية ما فى مبادئ العقيدة من مبادئ من عناصر الحق والصدق ، بعد النظر والتأمل والتدبر وقد كرس القرآن الكريم شطرا كبيرا من آياته لتوجيه الإنسان نحو الشواهد التى تبصر بصحة العقيدة، وهى الشواهد التى تحفل بها النفس الإنسانية والآفاق الكونية .

إن الفكرة متى كانت تحمل الحق ومتى ظهر ذلك الحق

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.
(٢) سورة يونس: الآية ٦٢.

ناصعا للنفس، واقتنعت اقتناعا ذاتيا ، كانت دافعة إلى ما تقتضيه من العمل.

ولذلك فإن التعاليم الإسلامية أطنبت فى تبصير النفوس بالحق فى العقيدة ودعتها إلى الاقتناع بها اقتناعا ذاتيا ، فكان ذلك أسلوبا تربويا عمليا لجعل العقيدة دافعة إلى السلوك.

ثانيا : تربية المسلم على الشعور المستديم بالحضور الإلهى فى كل ما يأتيه من الأعمال وذلك بالإحساس الداخلي بأن كل إبقاء لفعل أو انتهاء عن فعل. إنما هو تحقيق لمعنى الطاعة المطلقة لله تعالى.

وقد جاء تعبير عن هذا المعنى فى قول رسول الله ﷺ حينما سئل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فمن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى، لأنه مشاهد له بقلبه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه.

ويرى كثير من الباحثين: أن هذا المعنى قد تمثل فى مبدأ النية... ذلك المبدأ الإسلامى الذى تقاس به الأعمال. والنية هى دالة التلازم بين الدافع أو الباعث - أى العقيدة - وبين العمل السلوكى ، وجعل الإسلام هذه النية شرطا فى قبول الأعمال جميعا إنما هو أسلوب تربوى عملى حى. يجعل المسلم دائب الربط بين عقيدته وبين عمله فيتكون له ذلك خلق من إجراء الأفعال الظاهرة وفق الصورة العقدية.

بل إن العمل الذى تتحقق فيه النية ربما أصبح هو نفسه عاملا - بكثرة التكرار - على تقوية الإيمان وتعميقه.

كما يفيد قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ

خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾[1]، قال الأستاذ الإمام : لكان خيرا لهم في مصالحهم، وأشد تثبيتا لهم في إيمانهم.

فإن الامتثال إيمانا واحتسابا يتضمن الذكرى، وتصور احترام أمر الله والشعور بسلطانه وإمرار هذه الذكرى على القلب عند كل عمل مشروع يقوي الإيمان ويثبته، وكلما عمل المرء بالشريعة عملا صحيحا انفتح له باب المعرفة فيها، بل ذلك مطرد في كل علم.

ثالثا : الحث على العلم والدعوة إليه دعوة جعلت تحصيله فرضا عينيا في بعض، وكفائيا في بعض آخر. ثم ربط هذا العلم بمفهوم خاص هو التصور الذهني للحقائق الذي يقترن بالسلوك العملي.

ولذلك فإن العلم الذي هو مجرد التصور ليس هو العلم المطلوب إسلاميا. ولقد عبر الشاطبي عن ذلك المعنى بقوله : « كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي ».

وإن هذا الربط بين الصورة والعمل في مفهوم العلم مع الترقي في طلبه إلى درجة الوجوب لهو تمرين تربوي من شأنه أن يجعل الإنسان ينزل من أفكاره ما يجري عملا على جوارحه، وإذا كان أول علم دعي الإنسان إلى تحصيله هو العلم بالعقيدة، أصبحت هذه التربية عاملة على أن تصبح العقيدة دافعة إلى تحقيق السلوك بمقتضى الشريعة.

لقد جاء الإسلام ليكون منهج حياة، والحياة عمل وسلوك، ولذلك اعتبر السلوك هو الثمرة التي يسعى إليها.

ولا يخفى « أن مظاهر السلوك الإنساني تنحصر في القلوب

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٦.

والعقــول والجــوارح فللقلـــوب مشـــاعر وأحاســـيس وعواطـــف، وللعقـول توجيـهات ومنـــازع ، وللجـوارح وظـائف وأعمـال. وهــذه الثلاثـة تستوعب كـل ألوان النشاط للسـلوك الإنسـانى».

والقلب هو : «بضعـة مـن لحـم فـى جوف بضعــة أخـرى. وسمـى قلبـا لأنـه يتقلب. واسـم القلب اسم جـامع يقتضـى مقامـات البـاطن كلها: الصـدر والقلب والفؤاد واللب. وفى البـاطن منـها مـا هـو خـارج القلـب، ومنـها مـا هـو مـن داخـل القلـب، فأشـبه اسـم القلـب اسـم العـين»، والقلب وملكاتــه هـو القـوة المـهيأة لتأديـة الوظـائف العليـا.. واسـم القلب يستعمل عنـد الإجمـال ويـراد بـه أحيانـا جميـع القـوى الإنسـانية الباطنـة كلـها. كمـا يسـتعمل عنـد التفصيـل ويـراد بــه هذه القوة التى لها الإمرة على توجيه مملكة الإنسان.

والعقـل موهبــة مــن مواهــب الله ســبحانه وتعـالى. كمــا أن الطاعـات مكاسـب العبـاد، ولا تنـال المكاسـب إلا بــالمواهب، والعقـل يعطيـه الله للنـاس على قـدر مراتبـهم. فمـن كـان مــن الله تعـالى أقـرب كـان حظـه مـن العقـل أوفـر».

ويقــول الحكيــم الــترمذى : « النــاس يتفـاضلون فـــى أصـــل البنيـة فـى الفطنـة والكياسـة والحـظ مـن العقـل. والعقـل علـى ضربـين : ضـرب منـه يبصـر أمـر دنيـاه، وهـو نـور الـروح، وهـو موجود فـى عامـة ولـد آدم إلا مـن كـان فيـه خلـل أو علـة وبينـهم فـى ذلك العقـل تفـاوت عظيـم.

وضـــرب منـــه يبصـــر أمـــر آخرتــه، وهــو مــن نـــور الهدايــة والقربـة، وذاك موجـود فـى الموحديـن مفقـود فـى المشـركين، وبـين الموحديـن فـى ذلـك العقـل تفـاوت عظيـم. وسمـى عقـلا لأن الجـهل ظلمـة وعملـه على القلب. فـإذا غلـب النـور وبصـره فـى تلـك الظلمـة زالـت الظلمـة وأبصـر فصـار عقـالا للجـهل».

فالترمزى يرى أن الناس يتفاوتون فيما بينهم بقدر حظوظهم من العقل وأن هذه الحظوظ تتفاوت بحسب قرب الناس أو بعدهم من الله تعالى، والحكيم الترمذى يقسم العقل إلى :

. عقل خاص بأمور الدنيا يؤهل الإنسان لأمور الآخرة.

وعقل خاص بالتجرد عن كل أحوال الدنيا، يرقب الألطاف الإلهية، وينتظر فضل الله تعالى .. يقول الحكيم : « والعقل على قسمين: أحدهما القصد به إزالة الحمق وفعله حسن التدبير فى أمر الدنيا والإقبال على أمور الآخرة.

وثانيهما: عقل الكرامة الذى هو ينفعل كله بالتوفيق مع رؤية المنة والتبرى عن نفسه».

والمتأمل فى هذين القسمين للعقل، يلاحظ أنهما ليسا تقسيما للعقل الإنسانى بوصفه عقلا واحدا ذا وظيفتين، ولكنه: تقسيم نوعى للعقل الإنسانى، وكأن الناس يحصل بعضهم على ما هو القصد به إزالة الحمق، والبعض الآخر يحصل على عقل الكرامة.. ولا يقف الحكيم عند تقسيم العقل إلى هذه القسمة النوعية، بل نراه يقسم العقل إلى تقسيم مكانى وعضوى، ثم يحدد لكل قسم وظيفته، فيقول: « فصل فى ذكر العقل، ثم العقل عقلان، عقل الحجة وموضعه الدماغ وشعاعه إلى القلب. وعقل الكرامة ومستقره فى الغيب، ونوره وسلطانه فى القلب.. ثم هو نوعان: عقل طبيعية، وعقل تجربة وكلاهما يؤدى إلى المنفعة كما قال القائل:

فعقل هو مطبوع ... وعقل هو مصنوع

لا ينفع مصنوع ... إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

ويعلق أحد الباحثين على هذا النص للحكيم فيقول: «وواضح أن عقل الطبيعة هذا هو العقل الإنسانى الفطرى الذى خلق كما يقال صفحة بيضاء، ثم تتكون فيه المعلومات والخبرات بالممارسة والاكتساب. ومن هنا يصبح عقل تجربة - كما سماه الترمذى - وهو أقرب إلى العقل المستفاد - كما كان يسميه الكندى متأثرا بأرسطو فى تقسيمه للعقل الإنسانى ولعل عقل الطبيعة عند الترمذى هو العقل بالقوة عند الكندى وأرسطو من قبل».

ويشير الحكيم إلى دور العقل فى حياة الإنسان المؤمن قائلا: «والعقل عقل النفس عن الهوى، وفعله حسن التمييز، وضده الهوى، وهو علاقة القلب إذا تعلق به بوصله إلى الله تعالى».

وأعطى المؤمن العقل ليزين الطاعات فى صدره، ويريه قبح المعاصى فهذا فعل العقل ومسكنه فى الدماغ، وإشراقه فى الصدر. وذلك قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمۡ ﴾[1]، وإنما زين الإيمان فى القلب بالعقل.

أما الجوارح فهى: اللسان، والسمع، والبصر، واليدان، والرجلان، والبطن، والفرج. وهذه لها وظائف وأعمال.. فالقلوب والعقول والجوارح هى مظاهر السلوك الإنسانى: «والقلب أمير على الجوارح». كما أن القلب ملك المملكة الإنسانية فأى جارحة إنما تتحرك بإرادته، وتعمل بأمره، وتتصرف بتوجيهه وهو حين يصدر أوامره، أو يوجه توجيهاته، إنما فى ذلك إلى ما وضعه الله فيه من أنوار الهداية، وما يدبره له العقل بناء على ما يتمثل فيه من صور الأمور التى تنقلها إليه الجوارح والحواس الظاهرة والباطنة.

فإن وصلت إلى ساحة القلب فى الصدر مطالب للنفس عرضها

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٧.

القلب على ما ورد به من أنوار المعرفة والهداية الإلهية، ثم وضعها أمام العقل ليستبين منها ما يتفق مع الحق والخير، وما لا يتفق فما وجده يتفق مع ما فيه من أنوار الهداية والعقل أمضاه، وأصدر به الأوامر للجوارح الظاهرة لتنفيذه، وإلا نفاه واستبعده.

وفى كتاب « الأكياس والمغرين » يذكر الحكيم الترمذى قيما إسلامية سلوكية تقوم على أسس ثلاثة هى : الحق، والعدل، والصدق .. وهذه القيم الثلاثة بدورها تتقاسم القوى الإنسانية المختلفة ومظاهر السلوك الإنسانى: القلوب والعقول والجوارح. فتوجهها نحو سلوكية هادفة وواعية. سلوكية ليست خيالية أو وهمية بل إنسانية وعملية، تبلغ أقصى درجات الدقة فى التحقيق حينما تتمخض عبودية خالصة لله تعالى.

يقول الحكيم: إنا وجدنا دين الله ﷻ مبنيا على ثلاثة أركان: على الحق، والعدل، والصدق.

فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول، فإذا قرب غدا إلى الميزان لوزن الأعمال وضعت الحسنات فى كفة الحق، والسيئات فى كفة العدل، والصدق فى لسان الميزان. به يتبين رجحان الحسنات على السيئات كمنتهى رضا الله عن العباد في عبوديتهم. كل امرئ اجتمع فيه هذه الثلاثة، فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل، وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور، وإذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب.

ومن يتأمل هذا النص من كلام الحكيم الترمذى ، ويتفرس فيه أبعادا وأعماقا، ويتعرف على المعانى، ويحلل الكلمات: يجد أن الحكيم لم يستعمل مسميات القيم جزافا ، ولم يطرحها حشوا بل كان لكل اختيار من الكلمات عنده غاية، ولكل كلمة معنى، ولكل أسلوب فى عرضه هدف. فالدين هو الحق، والعدل، والصدق، والسلوك هو الحق والعدل

والصدق والهوى هو الباطل، والجور، والكذب. ولكن ما هذه الأسس الثلاثة؟ يقول الحكيم: «الحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول».

فالحق: هو ناحية الصواب من سلوك الإنسان فى عباداته ومعاملاته وما يأتيه بجوارحه، وضده الباطل.

والعدل هو ناحية الخير من طباع الإنسان وأخلاقه ويقين ضميره وقلبه، وضده الجور.

وأما الصدق فهو من ناحية الصواب من اعتقاد الإنسان ويقينه، وما يدين به من عقل وبحث، وضده الكذب.

والحق هو ما يبحث عنه علماء الشريعة والظاهر، والعدل هو ما يتحراه الحكماء والصدق هو ما يهبه الله لأصحاب الحكمة العليا.

فالحق والعدل والصدق من أركان الدين التى يبنى عليها، وهى جميعا ضرورية لتكوين السلوك وتجسيده واقعا ملموسا.

ولكن كيف تتفاضل هذه الأسس - الحق والعدل والصدق - فيما بينها تفاضلا يجعل بعضها فى أول سلم السلوك، وبعضها الآخر فى أعلاه.

إن الحكيم الترمذى يضع فى أدناها «الحق، حيث هو على الجوارح ويريد به علم الظاهر أو علم الشريعة .. وأصله البلوغ إلى حقائق الأشياء ودقائقها».

ويثنى الحكيم بالعدل الذى هو على القلوب وهو الدرجة الأولى من درجات السالكين: «وبدايته وقوف القلب على أمر الله تعالى وحقه، وفعله الاستقامة».. ويثلث الحكيم بعد ذلك بالصدق الذى هو على العقول، وبدايته: «الصواب، وفعله ألا يكره الموت ولا يبالى كشف سره، والناس

عنده فى الحق سواء». ويريد الحكيم بالصدق الحكمة البالغة وهو الدرجة العليا من درجات العبودية..

فالحكيم الترمذى يبنى السلوك هنا على ثلاثة أسس: على الشريعة والحكمة الظاهرة ثم الحكمة العليا، وهو حين يبنى على هذه الأسس إنما ينبى على طريقتين أو منهجين:

الطريقة الأولى : بناء ضرورة أو تمام أى أن السلوك لا تقوم له قائمة إلا بتوافر هذه القواعد الأساسية فى البناء : الحق والعدل والصدق..

والطريقة الثانية: بناء درجات ومراحل أى أن السلوك لا يصل إلى أقصى درجات كماله حتى يصل إلى الحكمة العليا «المعرفة».

ولا شك أن أسس البناء ـ الحق والعدل والصدق ـ تستوعب كل ألوان النشاط للسلوك الإنسانى . فإذا ما ضبطت القلوب والعقول والجوارح بموازين الحق والعدل والصدق، وصل الإنسان إلى المعرفة.

ومما يستحسن التنبيه إليه أن الحكيم حينما وزع أسس السلوك : الحق، والعدل، والصدق، على القوى الإنسانية : الجوارح، القلوب، والعقول . وزع هذه الأسس أيضا على ميزان الحساب . فجعل الحق الذى هو على الجوارح فى كفة الحساب .. وجعل العدل الذى هو على القلوب فى كفة السيئات لأن حساب الله للإنسان على سيئاته هو من باب العدل.. وجعل الصدق الذى هو على العقول في لسان الميزان، لأن الله سيسأل الصادقين عن صدقهم.

قال الحكيم : « فإذا قرب غدا إلى الميزان لوزن الأعمال، وضعت الحسنات فى كفة الحق، والسيئات فى كفة العدل، والصدق فى لسان الميزان، به يتبين رجحان الحسنات على السيئات كمنتهى رضا الله عن العباد فى عبوديتهم». لقد كان الحكيم الترمذى حكيما ربط أسس السلوك بقوى الإنسان، وحينما جعل هذه الأسس تربط بين وجودين:

وجود الله الذى هو مصدر الغنى والكمال والإفاضة فى هذا العالم.. ووجود الإنسان الذى هو وعاء الفقر والحاجة والمسكنة، والمتقوم بالإفاضة والعطاء المستمر.. وهذا الربط بين الوجودين:

وجود إلهى هو المبدأ والمصدر فى إيجاد الإنسان وإفاضة الخير عليه والرحمة، ووجود .إنسانى صادر عن ذلك المبدأ ومتعلق به، ومتوقف عليه، ومتوجه نحوه، دوما لطلب الإفاضات.

هذا الربط عند الحكيم ينتج عنه شعور يقود إلى توجيه النفس البشرية إلى مبدئها الذى يهبها ويمنحها ما يوفر لها كمالها ويحفظ وجودها بما يجعل أسس السلوك عند الصوفية أسس تربوية موجهة تقود إلى ما فيه الطمأنينة وتتناول بالرعاية والعناية الإنسان. وتخط له مسارا صحيحا وتضع له منهاجا قويما، يستجيب لنوازعه الخيرة وينميها، ويحول بينه وبين دواعى الاغترار.

((فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل، وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور، وإذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب، وهذه الثلاثة هى أضدادهن جند الهوى فالنفس وعاء الهوى المشتملة عليه بأهل الغرور)).

وإن من يدقق النظر فى أسس السلوك يجد أن الحق على الجوارح، وأن الحسنات فى كفة الحق، وضد الحق الباطل، وأن العدل على القلوب، وأن السيئات فى كفة العدل، وضد العدل الجور، وأن الصدق على العقول، وأن الصدق فى لسان الميزان، وضد الصدق الكذب.

إن من يجد ذلك ويعرف أن أضداد هذه الأسس هى جند الهوى ليدرك فى وضوح أن لهذه الأسس : موضوعات، ومناهج، وغايات، ودلالات وعلاقات، وارتباطات.

وإن كتاب: ((تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس)) للعارف بالله على بن محمد الشهير بالمصري، من الكتب المفيدة في حياة الناس

الاجتماعية حيث أن حسن الظن بالناس قيمة عليا من القيم الرفيعة التي تأخذ بالناس إلى الاستقرار.

وما جاء في هذا الكتاب النفيس من معالم مضيئة في طريق أهل العلم، وهي علامات في طريق أهل الحق.

وقد بذلنا في ضبط وتقويم هذا الكتاب جهدا كبيرا، حيث علقنا على ما لا يتناسب مع ثقافة الناس، وحذفنا بعض العبارات، حتى يخرج الكتاب على الصورة المرجوة.

نسأل الله أن ينفع به.. إنه سميع قريب.

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار
توفيق على وهبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدى لحسن الظن من اختار من الفريقين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن الكيف والأين.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله المبرأ من الزيغ والمين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الذين هم لكل مؤمن قرة عين.

وبعد..

فقد سألني بعض الإخوان في جمع شيء من كلام القوم في الأمور التي يسبق إلى الذهن فيها سوء الظن فجمعت هذه الجملة فحبب لي وضعها على هذه الوصية، أسكن الله صاحبها الغرف العلية، قاصدا الفتح هذا الباب الذي قل من يعرفه اليوم من مشايخ هذا العصر وعلمائه فضلا عن غيرهم بل غالبهم ويسارع إلى سوء الظن كما هو مشاهد فيسيء الظن بمجرد الرؤية أو السماع أو الإشاعة من غير ترتيب. وما هكذا درج السلف الصالح من التابعين، ومن بعدهم العلماء من العالمين، والمشايخ الصادقين، إنما كانوا يسارعون إلى حسن الظن بالمسلمين، وينكرون على ما من يسارع إلى سوء الظن ويرمونه بالمقت وعدم الانتفاع بالعلم والعمل.

وكانوا يحثون من يجتمع بهم على دوام النظر في محاسن المسلمين، والتعامي عن مساوئهم وأن يرجى لهم قبول التوبة ولو فعلوا من معاصي أهل الإسلام ما فعلوا.

وأن يحملهم في جميع ما يقعون فيه من مواطن التهم على أحسن المحامل وأجمعوا أن كل كشف اطلع صاحبه على شيء من عيوب الناس فهو كشف شيطاني تجب التوبة منه فورا.

وقالوا: من أراد أن يعرف صدق شيخ من كذبه. فليذكر عنده أحدا بسوء فإن أخرج للمذكور محملا حسنا فهو صادق يقتدى به، وإن خاص فهو بالعكس.

وجاء شخص إلى الأمام أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- فقال له: ما عدت أعتقد في فلان أبدا.

فقال: لم؟

فقال: سمعته يقول غالب علماء العصر يكرهون الحق، ويحبون الفتنة.

فقال له يحتمل أن يكون مراده بالحق الموت، وبالفتنة المال والولد، قال الله تعالى: ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[1].

وجاء شخص إلى الإمام عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- فقال له: إني منكر على فلان.

فقال له: لم؟

فقال: سمعته يقول: غالب علماء العصر يعبدون المال.

فقال له يحتمل أن يكون مراده بعبادة المال قوة المحبة له لينفقوه في وجوه الخير.

وجاء شخص إلى الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- فقال له: إني منكر على فلان.

فقال له: لم؟

فقال: سمعته يقول غالب علماء العصر يحبون أولادهم وزوجاتهم وأنا لست كذلك، وهل أحد يسلم من محبة الزوجة والولد.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٨.

فقال له: لعل مراده أنهم يحبون أولادهم وزوجاتهم محبة شرعية، وأنا لست مثلهم إنما أحبهم محبة نفسية فهنيئا لهم دوني ولعل مقصوده بذكر ذلك إشارة لك لتحذر من ذلك فتخرج من ضيق المحبة الطبيعية إلى فضاء المحبة الشرعية فتكون مؤمنا كاملا.

وجاء شخص إلى أبي نصر بشر الحافي -رحمه الله تعالى- فقال له: ما عدت أعتقد في فلان أبدا.

فقال له: لم؟

فقال: قال لي أنت عبد عبدي، فقال له: لعلك يا أخي مطيع للهوى والهوى عبد للرجل الصالح. فأنت عبد عبده، من هذا الباب ومقصوده بذلك تنبهك على مخالفة الهوى.

وجاء شخص إلى سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني -رحمه الله تعالى- فقال إني منكر على فلان.

فقال له: لم؟

فقال: يدعي أنه القطب، فقال له: يحتمل أنه يريد أنه قطب أصحابه فقط فلا إنكار في ذلك.

وجاءه أيضا شخص فقال له: إني منكر على فلان.

فقال له: لم؟

فقال: سمعته يقول: غالب علماء العصر يسكتون جماعتهم إذا كانوا في مجلس ذكر بغير إذن من الله تعالى وأنا لست كذلك إنما أسكتهم بإذن.

ومعلوم أن الإذن لابد فيه من المحادثة ولا يخفى ما في ذلك.

فقال له: ليس مراده بالإذن محادثة الحق سبحانه وتعالى،

وإنما مراده استئذانه -عز وجل- في تسكيت الجماعة وذلك من أدب العارفين مع الله تعالى، فإن أحدهم لا يسكت جماعته إذا كانوا في مجلس ذكر حتى يستأذن الحق تعالى فيقول بقلبه دستور يا الله: اسكت عبيدك. وأيضا لا يلزم من الإذن المحادثة فقد يكون الإذن من طريق الإلهام، والإلهام ليس فيه محادثة.

وجاءه أيضا شخص فقال له: أنا لا أعتقد في فلان فإنه كافر، فقال له: وما بدا لك من كفره؟

فقال: سمعته يقول: إن الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب، فقال له: هو قول صحيح الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب من الشيطان وحجاب من النار.

ووقعت في مذاكرة بحضرته عن السلف الصالح في نصحهم في تربية المريدين، فقال شخص: إن فلانا لم يكن من الناصحين في تربية المريدين.

فقال له: لأي شيء؟

فقال له: إنه لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يعلمهم آدب الطريق، فقال له: استغفر من سوء ظنك فإن الكمل من المشايخ يربون بالنظر.

وذكر إنسان مشهور بالصلاح بحضرة سيدي أحمد الزاهد -رحمه الله تعالى- فقال شخص أنا أعتقده وأنكر عليه تركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال له: لعل الحامل على ترك ذلك شدة احتقار نفسه عنده أي عند الأمر والنهي.

وقد كان بعض السلف يقول: إني لأرى بعض الإخوان فيما لا ينبغي ويمنعني من نصحه شدة احتقار نفسي عندي.

وسمع سيدي أفضل الدين -رحمه الله تعالى- شخصيا يحكي

أن أشعب الطماع كان يفت الخبز على دخان جاره، فقال شيء لله من مدده فإنه لولا حسن ظنه بجاره ما فت خبزه على دخانه.

وجاء شخص إلى الشيخ الكبير سيدي عبد الوهاب الشعراني -رحمه الله تعالى- فقال له: إني منكر على فلان، فقال له: لم؟

فقال: إنه يكتب على مراسلاته إلى فلان الظالم الأخ الصالح، فقال له: يحتمل أن يكون مقصوده بالصالح الصالح لإحدى الدارين الجنة أو النار.

وجاءه أيضا شخص مرة من الجامع الأزهر فقال له: ما عدت أعتقد في العالم الفلاني أبدا، فقال له: لم؟

فقال: سمعته يقول: أنا أعلم من جميع علماء مصر الآن، بل أعلم من جميع من على وجه الأرض من العلماء.

فقال له: يحتمل أنه يريد أنه أعلمهم بزلاته ومخالفته أو بما في بيته من الأمتعة أو أعلمهم ببدن زوجته ونحو ذلك، فقال: وسمعته يقول أيضا العالم الفلاني لا يجيئ قلامة ظفري ولا شعرة مني.

فقال له: نعم أنه لا يجيء قلامة ظفر ولا شعرة بل هو أجل من ذلك، فكأن لسان حالك أنت يقول: بل يجيء كذلك، فقال: وسمعته أيضا يقول: ونحن في طريق بيلاق: سبحان من شرف هذه البقاع بمشينا فيها، فقال له: هو قول صحيح فإن النوع الإنساني أشرف من التراب لأنه خلاصة الوجود فهو يشرف من هو دونه اهـ.

وسميت هذه الجملة بـ (تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس) والله تعالى أسأل أن ينفع بها من كتبها أو قرأها أو سمعها أنه جواد كريم رءوف رحيم.

الفصل الأول

حسن الظن

أول وصية عليكم أيها الإخوان بحسن الظن بالمسلمين ما استطعتم: أي الزموا حسن الظن بالمسلمين ما استطعتم فإنه باب كبير من أبواب الخير كما سيأتي.

وقد روى أبو داود وحسنه عن أبي هريرة: «حسن الظن من حسن العبادة».

وفي رواية: «من حسن عبادة المرء حسن ظنه».

وكان الإمام الشافعي يقول: من أحب أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس.

وكان أبو النصر بشر الحافي يقول: من سره أن يسلم فليلزم الصمت وحسن الظن بالخلق.

وكان الشيخ الكبير سيدي أحمد بن الرافعي يقول: من اقتفي أثر حسن الظن حجبه عن رؤية المناقص المقيدة في الخلق وانتفع بعلمه وعمله واستراح من الشواغل وسلم من الغدر والغيبة والحسد وحصل له مقام التواضع الكامل.

وكان سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني يقول: من أراد أن الوجود كله يمده بالخير فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدرجة فإن المدد الذي مع الخلق كالماء، والماء لا يجري إلا في المواضع المنخفضة دون العالية أو المتساوية ولا يرى الإنسان نفسه كذلك إلا إن أحسن ظنه بالخلق.

وكان الشيخ الكبير أبو محمد اليافعي -رحمه الله تعالى- يقول: عليكم بحسن الظن بالمسلمين فإن حسن الظن بالمسلمين

فضلاً عن الصالحين باب كبير من أبواب الخير والنفع في الجلب والدفع أعني جلب المحبوبات المحمودات ودفع المكروهات المذمومات في الحياة والممات وذلك مشهور ومعروف عند كل من هو بالخير موصوف وأنشدوا:

إن الذي طهر المولى سريرته   من الظنون لفي جنات رضوان
فظن بالخلق خيرًا يا أخي فلقد   جاء الوعيد لغياب وظنان

وأنشدوا:

إذا ما شئت أن تحيا سعيدا   من الخيرات مملوء اليدين
فظنّ بمعشر الإسلام خيرا   وعش أعمى وأصلح ذات بين

وأنشدوا:

إذا ما شئت أن تحيا سعيدا   حبيبًا للغنيّ وللفقير
فظن بمعشر الناس خيرا   وراع الوقت واقنع باليسير

وأقوال السلف والخلف في مدح حسن الظن والحث عليه كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لمن هداه الله تعالى ومحل حسن الظن كما قالوا: إنما هو في الأخلاق التي تحتمل التأويل أي الخير والشر من الأعمال القلبية المتعلقة بالنيات الآتية إن شاء الله تعالى.

أما الأفعال: التي صرح الشارع بتحريمها فلا يجوز لمؤمن أن يحمل صاحبها على محمل حسن كشرب الخمر والزنا وأخذ الرشا والمكس وأكل الحرام ونحو ذلك.

وقد أجمعوا على أنه لا يصل أحد إلى مقام حسن الظن إلا أن طهر الله تعالى باطنه من سائر الرذائل.

إما بالفطرة، وإما بالعلاج والرياضة بحيث يصير لا تخطر الفحشاء على باله ومادام في باطنه شيء من الرذائل فمن لازمه غالبا سوء ظنه بالناس قياسا على ما عنده.

وفي هذا المعنى أنشد بعضهم شعرًا:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداتهم وأصبح في ليل من الشك مظلم

فمن طهر باطنه من سائر الرذائل فهو الذي يصح منه حسن الظن بالمسلمين كلهم.

وسيأتي قول سيدي علي الخواص -رحمه الله تعالى- أن الشخص لا يسيء الظن بأخيه ويقبل ذلك في حقه إلا وهو صورة حاله هو.

فأما وقع له ذلك وإما عزم عليه وإما خطر له، لأن المؤمن مرآة المؤمن.

وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي -رحمه الله تعالى- أجمع القوم على أن من حمل الناس على المحامل السيئة فإنما ذلك صورة نفسه هو، فكأنه يقول: أنا من أهل ذلك القبيح.

ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الشخص الواحد يجتمع فيه الخير والشر في وقت واحد فيكون وليًا لله تعالى من وجه، كما أنه عدو لله من وجه آخر.

قال: وهذا هو الحق الواضح الذي شواهده كثيرة من الكتاب والسنة بخلاف من قال: بالإحباط وكفر المؤمنين بالمعاصي والذنوب كما فعلت الخوارج وغيرهم.

قال: واعلم أنه لم يأت لنا شرع بالحث على سوء الظن. ثم إن ورد فهو مؤول اهـ.

قال بعضهم: نعم أولوا حديث عليّ وعائشة مرفوعًا: «الحزم سوء الظن»، وحديث أنس مرفوعًا: «احترسوا من الناس

بسوء الظـــن» بأن المراد بذلك أن يعامل العبد الناس وهو محترس منهم كمعاملة من يسيء الظن بهم لا الحث على سوء الظن.

وكان الشيخ أبو يعقوب الفهرجوزي يقول حديث: «احترسوا من الناس بسوء الظن» معناه أي بأنفسكم لا بالناس اهـ.

فإن قيل: فما حكم الشيخ إذا اطلع على شيء من نقائص المريدين هل ذلك قياسا على ما عنده أم كيف الحال؟

فالجواب: للشيخ طريقة أخرى يطلع بها على نقائص المريدين وهي الإلهام له من الله تعالى لا من باب سوء الظن والكشف الشيطاني فافهم.

إذ المشايخ ليس في باطنهم شيء من الرذائل حتى يقيسوا عليه حال غيرهم.

ولما علم الله احتياج المريد إلى اطلاع المشايخ على ما في باطنه من الرذائل ليدلوه على ما تخمد به تلك الرذيلة أعطاهم الإلهام الصحيح. فهم أعرف من المريد بأحواله.

فعلم أنه لا يجوز حمل أحد من المسلمين على المحامل السيئة مادام الأمر قابلا للتأويل.

إذا علمت ذلك يا أخي: فإياك أن تحمل أحوال الناس على أحوالك السيئة مادمت لم تتنظف من الرذائل، واعلم أنه يجب عليك إذا رأيت في أحد نقصا أن ترجع على نفسك باللوم وتجاهدها بالرياضة حتى لا تصير ترى في أحد نقصا إلا تبعا للشرع كما يجب عليك أن تنظر فيما يترتب على الأمور التي يسبق إلى الذهن فيها سوء الظن من جواب أو سكوت.

فلا يقال الجواب أولى مطلقا ولا السكوت أولى مطلقا إنما ذلك دائر بحسب ما يترتب عليه من المصالح.

فاعلم ذلك يا أخي وتأمل فيه: فإنه نافع جدا واستعن على تحصيل مقام حسن الظن بعد مجاهدة النفس بالرياضة والرجوع عليها باللوم بصحبة الأخيار وترك صحبة الأشرار. فإن صحبة الأخيار تورث حسن الظن بالأشرار.

كما أن صحبة الأشرار تورث سوْء الظن بالأخيار والله تعالى لا يسأل عبدا في الآخرة عن حسن ظنه بخلقه وإنما يسأله عن سوء ظنه بهم.

وكان الشيخ الكامل سيدي علي الخواص -رحمه الله تعالى- يقول: عليكم بحسن الظن بالمسلمين واتخاذ الأجوبة الحسنة لإخوانكم فإذا سمعتم عن مسلم كلمة فاحملوها على أحسن ما تجدون فإن لم تجدوا لها محملا فلوموا أنفسكم.

وقد كان الإمام جعفر الصادق يقول: إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين. فإن لم تجد عذرا فقل لعله عذر لا أعرفه.

وإذا سمعتم عن أحد من العلماء والصالحين أنه يعتني بالسماع كثيرا ويستعمل آلاته فلا تعترضوا عليه فإن سماع العلماء والصالحين ليس كسماعنا فلا يعرف حالهم إلا من لحق بمقامهم.

واعلم أنهم لا يسمعون من الآلات إلا التسبيح، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[1] ومن لا يسمع من شيء إلا تسبيحه لخالقه لا يحرم عليه سماعه إذ الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، فماء العنب إنما حرم لعلة الإسكار فإذا لم يحصل به إسكار فلا حرمة.

وكذلك آلات السماع المحرمة إنما حرمت لأنها تفضي إلى شرب الخمرة التي هي أم الخبائث فإذا حملت السامع على الغيبة

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

عن هذا الوجود وذكرته العهد القديم وجمعت قلبه على خالقه كيف لا تباح له وقد زالت العلة فزال المعلول.

وإذا رأيتم عالما أو صالحا يحضر مواضع المعاصي فاحملوه على أنه حضر العصاة ليحوطهم بأسماء الله تعالى خوفا أن يقع بهم العذاب أو على أنه خالطهم ليعظهم ويخوفهم ونحو ذلك.

وإذا رأيتم شخصا يسار امرأة في عطفه فاحملوه على أنها من محارمه أو زوجته أو أنها ممن لا يخشى منها الفتنة.

وإذا رأيتم امرأة تشبه بنات الخطأ داخلة بيت أحد من الأكابر. فاحملوها على أنها داخلة لعياله لحاجة دينية أو دنيوية لا لذلك الرجل ليفعل بها ما لا يحل.

وإن كان صاحب ذلك البيت عالما أو صالحا فاحملوه على أنه أرسل وراءها ليتوبها عن الفواحش مثلا.

وإذا رأيتم أحدا من الطوافين يبيع حال صلاة الجمعة فاحلموه على أنه له عذر شرعيا في عدم حضور الجمعة كأن يضيق عليه صاحب ذلك الدين أو حلف إن لم يوفه حقه في هذا اليوم حبسه.

وإذا رأيتم أحد من العلماء والصالحين يحج في محفة فاحملوه على أن له عذر في ذلك وأن المحارة لا تكفيه في مد رجله ولا يجوز حمله على أنه فعل ذلك ترفها.

وإذا رأيتم شخصا يقرأ القرآن الكريم جهرا وهو في السوق في حانوته أو مارا راكبا أو ماشيا فاحملوه على الإخلاص أو على أنه جهر بالقرآن الكريم ليذكر الناس بربهم في مواطن الغفلة ولا يجوز حمله على غير ذلك من المحامل السيئة.

وإذا رأيتــم فقــهاء واعــدوا شــخصا بــأن يقــرءوا عنــده ليلــة النصف مـن شعبان مثلا بثلاثين نصفـا فزادهـم شـخص آخـر علـى ذلـك فـتركوا الأول وذهبـوا مـع الثـاني فـاحملوهم علـى أنـهم مـا تركـوا الأول إلا لظـهور تعظيـم الثـاني للقـرآن الكريـم بـإكرام أهلـه أكثر، فقدمـور القـراءة عنـده والأكـل مـن طعامـه لأنـه أكـرم وأعظـم مـروءة نظير مـن جعـل للمصحف ثوبـا حريـرا تعظيمـا لـه مـع فقـد صيغـة الإجارة في مثـل ذلـك غالبـا فمـا صحت الإجـارة.

وإذا رأيتـم شخصا قـام وتواجـد ولـو كـان مـن الظلمـة أو لم يكـن لـه بـه عـادة فـاحملوه علـى محمـل حسـن فقـد يكشـف الله تعـالى الحجـاب عـن بعـض القلـوب فتحـن إلى وطنـها الأول فتتمـايل كالشجرة الـتي تريـد قلـع عروقـها مـن الأرض.

وإذا رأيتـم مـن أحكـم العلـم والعمـل الظـاهر فعمـل الطاعـات وتـرك المعـاصي فإيـاكم أن تظنـوا بـه أنـه متخلـق بـالأخلاق المذمومـة كالكبر، والعجب، والريـاء، والحسـد، وطلـب الرياسـة والعلـو في النـاس والشـماتة بمصـائب الأقـران ومحبـة الشـهرة بـالصلاح والزهـد في الدنيـا. فإن ذلـك حـرام عليكـم.

وفي الحديث: «إذا رأيتم مـن أخيكـم حسـنة فـأحبوه عليـها واعلموا أن لها عنده أخـوات».

وإذا رأيتـم مـن يقـرر أمـراض البـاطن ويذكـر لكـم دواءهـا فإيـاكم أن تظنـوا بـه العجب بذلـك وأنـه يظـن بنفسـه السـلامة منـها أو أنـه يتكـدر ممـن صـار يشـفع عنـد الحكـام الذيـن كـان يشـفع عندهـم وصـاروا يردونـه ولا يقبلـون لـه شـفاعة ونحـو ذلـك بـل احملوه علـى أحسـن المحامل ولا تقيسـوا حاله علـى حـالكم ولـو وقـع لكم ذلـك فإنـه سـوء ظـن بـه.

وكذلك إذا رأيتم من أحكم العلوم الشرعية وطهر الجوارح من سائر المعاصي الظاهرة وزينها بالطاعات، وتفقد أحوال النفس وصفاتها الرديئة حسب طاقته.

فإياكم أن تقولوا إنه مغرور ولو فتش نفسه لوجد عنده بقايا نفاق وحب محمدة ورياء وغير ذلك بل سلموا له حاله الظاهر، وكلوا قلبه إلى سيده فليس لكم مزاحمة البارئ جل وعلا في قلبه.

وإذا رأيتم من أفنى عمره في تحصيل علم الفتاوى وفصل الخصومات الجارية بين الخلق وخصص اسم العلم الشرعي بذلك دون غيره فإياكم أن تقولوا أنه مغرور.

لأنه لم يعتن بكثرة الأعمال الظاهرة ولم يتفقد جوارحه الظاهرة والباطنة من وقوعها في الغيبة والنميمة وأكل الحرام والحسد والرياء وسائر المهلكات بل ظنوا به الخير.

فإنه لم يقم أحد من الأمة بجميع ما كلف به بل أن رجح من وجه خف من وجه آخر سواء في ذلك الفقيه والصوفي ولو فتش من ينسب الناس إلى الغرور لوجد نفسه مغرورا كذلك.

وفي الحديث: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم».

وإذا رأيتم من أفنى عمره في علم الكلام فإياكم أن تقولوا إنه مغرور لأن إيمان العوام صحيح ولو لم يعرفوا ما قاله المتكلمون. بل اشكروه لأنه ربما قام لنا بدعي يجادل في الشريعة فيكون هذا مستعدا بقطع الحجج.

وإذا رأيتم واعظا يدعو الناس إلى الخير فإياكم أن تظنوا أنه لا يعمل بما يقول بل ظنوا أنه متخلق بما دعاكم إليه وإنه ما دعاكم إلى الإخلاص إلا بعد أن أخلص ولا إلى الزهد إلا بعد أن زهد وغير ذلك.

وإذا رأيتم من يختم القرآن الكريم كل ليلة فإياكم أن تقولوا لا فائدة في ذلك لعجزه عن العمل به والتفكر فيه بل أثبتوا له الثواب بمجرد تلفظه بحروفه وفتشوا في نفوسكم تجدوها لا تقدر على العمل بكل ما قرأت فكما تعذرون نفوسكم فاعذروا غيركم.

وبالجملة: فما أحد من الأمة يعمل عملا من الأعمال إلا ولله الحجة عليه من حيث تقصيره فيه حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمجاورة بمكة والمدينة وسائر مقامات الطريق كما هو مبسوط في ربع المهلكات في كتاب الإحياء.

وكان يقول أيضا: إياكم أن تبادروا إلى سوء الظن بمن رأيتموه لا يصلي في الصف الأول فربما كان ذلك الشخص يعلم من نفسه أنه يجمع الدنيا ويحكم على نفسه بقلة العقل.

أو احملوه على أنه ربما فعل ذلك خجلا واستحياء من رسول الله ﷺ فترك الصلاة في الصف الأول خوفا أن يخالف قوله ﷺ: «ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» والنهى جمع نهية وهي العقل، والعاقل هو من زهد في الدنيا وأقبل على ربه وتفكر في أمر آخرته.

وقد سئل الإمام الشافعي لو أوصى رجل بماله لأعقل الناس؟ يصرف إلى من؟ فقال: يصرف إلى الزهاد في الدنيا.

وفي حديث الترمذي مرفوعا: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ويجمعها من لا عقل له» فجعل ﷺ من يجمع الدنيا لغير غرض شرعي لا عقل له وكل إنسان يعرف حال نفسه هل هي تحب جمع الدنيا أم تكرهه فهو أمر راجع إلى قلبه ونيته.

وفي الحديث أيضا: «صفوا كما تصف الملائكة عند ربها» أي

في التقدم والتأخر فكما لا يتقدم آحاد ملائكة التسخير مثلا على أكابرهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وإسماعيل. فكذلك لا ينبغي لمن يعلم من نفسه رقة الدين أو أنها تحب جمع الدنيا أن يتقدم إلى الصف الأول، أو على أحد من المسلمين حتى لو علم من نفسه الديانة وبغض الدنيا لا ينبغي له أن يتقدم إذ كل إنسان يجب عليه أن يرى غيره أفضل منه ليخرج عن الكبر كما درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين.

قال: وهذا الذي ذكرناه لا ينافي حديث «خير صفوف الرجال أولها» لأن المراد بالرجال هنا الكمل في مراتب الإيمان فمن علم من نفسه ذلك فليتقدم.

قلت: فعلى هذا من لم يكن زاهدا في الدنيا فالأفضل في حقه أن يصلي في آخر الصفوف كما حكى شيخنا عن سيدي أحمد الزاهد والشيخ محمد المغربي والشيخ مدين والشيخ أبي العباس الغمري أنهم كانوا يصلون دائما في آخر صف في مساجدهم ويقولون لا يصلي في الصف الأول إلا الزاهد في الدنيا.

كما أشار إليه حديث: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى» أي وكذلك كل من صلى إماما بقوم لا ينبغي أن يليه إلا أولو النهى وهم الزهاد في الدنيا. والله أعلم.

وكان يقول أيضا: انصحوا إخوانكم في وجوههم حسب الطاقة بحسن سياسة وناقشوهم كل المناقشة وإذا غابوا فاحملوهم على المحامل الحسنة عند من يذكرهم بسوء فإذا سمعتم أحدا يقول كيف يدعي هؤلاء ترك الدنيا وأحدهم يسافر إلى الروم في طلب جوالي أو مسوح مثلا فقولوا له: قد يكون هذا

يقصد بذلك الخفاء بين الناس حتى لا يتميز عن أبناء جنسه الذين يسافرون في طلب أرزاقهم.

أو قد يكون قد اطلع من طريق كشفه أن له رزقا في الروم لا يمكن أن يصل إليه إلا بسفره له فسافر في طلب رزقه فلا حرج عليه.

وقد كشف لبعضهم عن لقمة في دمياط لابد له من أكلها فسافر إليها فلما أقبل على البر رأى شخصا يأكل لحما فزور بلحمة فألقاها قال: فأخذتها وبلعتها فلما بلعتها تحركت نفسي للرجوع فرجعت عن ساعتي وعلمت أن من الرزق ما يأتي إلى صاحبه ومنه ما يأتي صاحبه إليه لابد له من ذلك.

وإذا عاشر أخوكم الصالح أحدا من الفسقة فاحملوه على أنه ما عاشره إلا ليرجعه عن معصية الله تعالى.

وإذا بلغكم عن امرأة قد مات أحد من أهلها أو جيرانها أن زوجها قرب منها ليلة موت ذلك الميت فاحملوها على إظهار الرضا من الحق تعالى بذلك لا على غلبة الشهوة الطبيعية فإن ذلك من سوء الظن بها.

وإذا انقطع أخوكم عن زيارتكم مثلاً أو عيادتكم فلا ينبغي أن تتكدروا منه بل الواجب عليكم حمله على أنه لم يجد له نية صالحة يزوركم أو يعودكم بها ولا يجوز ذلكم حمله على أنه فعل ذلك تكبرا عليكم أو استهانة بحقكم.

وإذا دعاكم أحد إلى وليمة وأجلسكم عند النعال وقدم إليكم فضلة العبيد والخدام فمن الواجب عليكم حمله على أنه ظن فيكم الخير والتواضع وزوال الرعونات النفسية، ولولا أنه ظن فيكم ذلك لأخذ حذره منكم وصدركم في المجلس وأكرمكم كل الإكرام في الطعام وغيره.

وقد وقع لسيدي الشيخ عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر. إنه دعى إلى وليمة فأجلسوه هو وأصحابه عند النعال.

وقالوا له ولأصحابه: اصبروا عن الأكل حتى يفرغ الناس. فقال: سمعا وطاعة فلما قدموا لهم الفضلة صار سيدي عبد الله المنوفي يلحس الأواني. ويقول: اغتنموا بركة من أكل ثم قال لأصحابه: تعلموا حسن الظن بالناس فإن هؤلاء لولا أحسنوا بنا الظن وجعلونا من الصالحين الذين ماتت نفوسهم ما أجلسونا خلف النعال ولا أطعمونا الفضلة.

ووقع أن امرأة سيدي مجاهد النبراوي دعت زوجة سيدي عبد العزيز الديريني إلى طهور أولادها ففرشت لها البيت بالبسط والمقاعد لظنها أنها من أهل الدنيا فلما دخلت ورأت عليها ثيابا خلقة طوت البسط وأرسلتها إلى المطبخ مع الجواري.

فلما جاء سيدي عبد العزيز ليأخذها شكت إليه شدة ازدرائهم بها فقال لها مبادرا: هذا تعظيم ما فعلوه مع أحد غيرك أجلسوك في المطبخ فكلما طبخوا شيئا أطعموك منه بغير تعب.

وكان سيدي الشيخ علي المرصفي -رحمه الله تعالى- يقول: إياكم والمبادرة إلى الإنكار على من رأيتموه من العلماء والصالحين يكثر من الجماع بل الواجب حمله على المحامل الحسنة.

واعلموا أنه لا يتحقق لعارف وجه العبودية ذوقا في شيء من العبادات كما يتحقق له حال الجماع أبدا فإنه يشهد نفسه مقهورا تحت حكم شهوة طبيعية حتى لا يقدر على دفع حكمها عليه، ولا يكاد يتذكر شيئا آخر غير ما هو فيه.

ولذلك كان من شأن القطب الغوث الإكثار من الجماع لما

يجده في نفسه من التحقق بالعبودية التي لا يشوبها دعوى قوة بل محض ضعف.

فإياكم والاعتراض على من ترونه يكثر من الجماع فربما كان سبب كثرة جماعه هذه الحكمة التي ذكرناها.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين يمدح نفسه أو يجيب عنها فاحملوه على المحامل الحسنة فربما من رأى طلبته عدم الاعتناء بما يقوله لهم من العلوم المحررة أو خاف تزلزلهم عنه إذا رماه الناس بالعظائم ولم يجب عن نفسه فيعدم الناس النفع به.

ولو أنه علم من طلبته أنهم يعرفون نفاسة ذلك الكلام ولم يتزلزل اعتقادهم فيه إذا لم يجب عن نفسه لكان يسكت ولم يمدح نفسه ولا عمله.

وكان الشيخ أو المواهب الشاذلي -رحمه الله- يقول: إياكم والمبادرة إلى الإنكار على من رأيتموه من القوم يمدح نفسه، فإن ذلك جهل وسوء ظن بل احملوا القوم على أحسن المحامل، وأنهم ما ذكروا لإخوانهم شيئا من أحوالهم إلا ليقتدوا بهم فيها.

هذا هو اللائق بمقامهم وقد كنت وأنا مريد أتكدر من مدح الشاذلية نفوسهم وأقول كيف ينبغي لفقير أن يزكي نفسه بين الناس حتى وصلت إلى مقامهم الذي مدحوا منه نفوسهم فرأيت أن ذلك من أوجب الواجبات على العبد فإنه لا يكفي الإنسان أن يشكر ربه في نفسه فقط.

وإنما عليه أن يشيع ذلك بين العباد حتى يعلم به الخاص والعام، فإنه تعالى يحب من عباده أن يشكروه ويصفوه بينهم بالجود والكرم.

وفي الحديث: «التحدث بنعمة الله شـــكر».

وكان أبو الحسن علي بن أبي طالب ﷺ يقول: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيمن نزلت، إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤلا.

وكان يقول أيضا: والله ما على وجه الأرض اليوم أحد أعلم مني.

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: والذي لا إله إلا هو ما نزلت آية من القرآن إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله تعالى مني تناله المطايا لأتيته.

وجلس الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم، أنعم الله علينا في كذا، أنعم الله علينا في كذا.

وكان يقول: إذا سمعتم أحدا يدعي أنه من أهل الكشف لكنه تنزه عن إشاعة ما كشف له كما عليه الكمل من الأولياء فاحملوه على الصدق، ثم إن كان كاذبا فإثم كذبه يرجع عليه لا عليكم، وإن كان صادقا فقد سلمتم منه.

وكان الشيخ محمد المنير -رحمه الله- يقول: إياكم والمبادرة إلى الإنكار على من ترونه من العلماء والصالحين يلبس لبس أبناء الدنيا أولي الهيئات ويركب على نفائس الخيل والبغال وينكح السرارى والمنعمات فإن ذلك جائز بالشرع ومن أنكره فهو جاهل مخطئ أو حاسد ممقوت فصاحب تلك الملابس يتمتع في مال سيده بإذنه والحاسد شقي محروم.

وأيضا: فإن لله عبيدا متواضعين ذليلين في صورة أغنياء متكبرين جمع الله لهم بين خيري الدنيا والآخرة، وكم من

صاحب مرقعة لبسها بنفس فلم يتبرك أحد بها، وكم من صاحب مرقعة هو أكبر نفسا من صاحب ثياب الخز ورفيع الكتان.

فالسعيد من حفظ لسانه وقلبه عن الإنكار على من خالف عوائد العلماء والصوفية في ملابسه ونحوها، ولا ينكر عليها إلا ما صرحت الشريعة المطهرة بتحريمه أو كراهته.

ومن كلام الشاذلي: العارف لا تنقصه حظوظ النفس المباحة. لأنه بالله فيما يأخذ وفيم يترك إلا أن تكون الحظوظ معاصيا.

وكان من طريقته الإعراض عن لبس الزي والمرقعات.

ويقول: إن هذا اللباس ينادي على صاحبه أنا فقير فاعطوني شيئا وينادي على سر الفقير بالإفشاء.

وقيل لسيدي علي بن وفا -رحمه الله- ما بال الشاذلية يتجملون في ملابسهم وطريقهم. إنما هي الاقتداء بالسلف الصالح، والسلف الصالح ما كانوا إلا على التقشف بأكل الخشن وبذاذة الهيئة.

فأجاب: أن الشاذلية لما نظروا إلى المعاني والحكم رأوا السلف الصالح إنما فعلوا ذلك حين وجدوا أهل الغفلة قد انهمكوا على الدنيا واشتغلوا بتحصيل الزينة الظاهرة تفاخرا بها واطمئنانا إليها وإشعار إبانهم من أهلها فخالفوهم بإظهار حقارة الدنيا التي عظمها أهل الغفلة وأظهروا الغنى بالله عما اطمأن إليه الغافلون.

فكانت أطمارهم يومئذ تقول: الحمد الله الذي أغنانا عما افتقر إليه نفس من همه الدنيا.

فلما طال الأمد وقست القلوب بنسيان ذلك المعنى اتخذ الغافلون رثاثة الأطمار وبذاذة الهيئة حيلة على تحصيل الدنيا فانعكس الأمر فصارت مخالفة ذلك لله تعالى هو عين فعل السلف وطريقهم.

وقد أشار إلى ذلك الأستاذ أبو الحسن الشاذلي بقوله: لبعض من أنكر عليه جمال هيئته من أصحاب الرثاثة: يا هذا هيئتي هذه تقول: الحمد لله وهيئتك هذه تقول أعطوني شيئا من دنياكم والقوم أفعالهم دائرة مع الحكم الربانية مرادهم مرضاة ربهم في كل حال.

فلو دخلت حضرتهم لعرفتهم ولظهرت لك مقاصدهم التي ترى بها حسن أفعالهم.

قلت: ليس مراد الشيخ أبي الحسن في قوله هيئتي هذه إلى آخره أن يعيب على الفقراء لبس الزي والمرقعات، وإنما مراده أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء.

فلا حرج على اللابس للخشن ولا على اللابس للناعم إذا كان من المحسنين والأعمال بالنيات.

وقد أنشد بعضهم مشيرا إلى ذلك موشحة:

كن بالصلاح موصوف   والبس صنوف

لو كان الصلاح بالصوف   لطار الخروف

إلى آخر ما قال. والله أعلم.

وكان الشيخ عبد القادر الدشطوطي -رحمه الله- يقول: سلم يا أخي لكل من تراه من القوم متجملا بالثياب ولكل من تراه عريانا منهم. فإن لهم في ترك لباس الثياب أعذارا صحيحة لا يعرفها إلا هم أو من لحق بمقامهم[1].

---

(١) يجب على المسلم ستر العورة، ومن خالف ذلك فليس هناك أي دليل يسنده.

قلت: ويؤيد قوله: فإن لهم في ترك لبس الثياب أعذارا صحيحة.

قول الأستاذ الكبير سيدي إبراهيم الدسوقي: إذا قويت في القلب الأنوار لم يطق صاحبها حمل ثوب رقيق ولا إزار.

وعلم من قول سيدي إبراهيم: أن سبب ترك بعض القوم لبس الثياب من مجاذيب وصحاة إنما هو قوة تراكم الأنوار في القلب. والله أعلم.

وكان شيخ الإسلام زكريا -رحمه الله- يقول: إياك والإنكار على الطائفة في كل ما يتحققون به وسلم لهم تسلم واعلم أنهم تارة يتكلمون حال غيبتهم عن نفوسهم بكلمات لا تليق إلا بالحق أو برسوله ﷺ فيظن السامع أنهم يشطحون بذلك وحاشاهم من سوء الأدب مع الله، أو مع رسله -عليهم الصلاة والسلام-.

وكان يقول: إياكم والإنكار على من سمعتموه من القوم يقول: أنا أعرف أصحابي من اللوح المحفوظ. فإنه لا إنكار في ذلك.

وقد كان الإمام سهل بن عبد الله التستري يقول: أعرف تلامذتي من يوم: «ألست بربكم» وأعرف من كان في ذلك اليوم عن يميني، ومن كان عن شمالي، ولم أزل من ذلك اليوم أرى تلامذتي وهم في الأصلاب لم يتحجبوا عني إلى وقتي هذا[1].

نقله عن الشيخ محي الدين في الفتوحات المكية.

وكان يقول: إياك والإنكار على الأولياء إذا سمعتم يلحنون في قراءة القرآن[2] والحديث. فإنهم لا يلحنون وإنما سمعك هو الذي يلحن.

---

(١) ليس هناك دليل على ذلك.

(٢) لا يجوز اللحن في قراءة القرآن

وقد وقع للشيخ إبراهيم الجعبري -نفعنا الله به- حال وعظه والناس يبكون أنه قال لهم: قولوا معي: شقع بقع يا الله يقع، فجاء الخبر أن القاضي المالكي نزل من باب المدرج من قلعة مصر فانكسر عنقه.

وأنهم عقدوا للشيخ مجلسا في منعه من الوعظ، وقالوا أنه يلحن في القرآن والحديث فامتنع القضاة الثلاثة وأفتى المالكي بمنعه[1].

فجاء الثلاثة قضاة وقبلوا رجل الشيخ وقالوا كنا هالكين لو أفتينا فيك بشيء، فقال الشيخ نحن لا نلحن وإنما سمعكم هو الذي يلحن ويسمع الزور والباطل.

وكذلك عقدوا للشيخ حسين الجاكي مجلسا عند السلطان بسبب اللحن فرسم السلطان بمنعه، فبينما السلطان في بيت الخلاء إذ خرج له أسد عظيم وفتح فاه يريد يبلغ السلطان، فارتعد السلطان وخر مغشيا عليه فلما أفاق نزل إلى الشيخ حسين واستغفر فأنشد الشيخ حسين نفعنا الله به:

سر الفصاحة كامن في المعدن	والسر في الأرواح لا في الألسن
والجوهر الشفاف خير قنية	فلمقتني الأصداف قل لا تقتن
ماذا يفيد أخا لسان معرب	أن يلق خالقه بلقب ألكن
فإذا نطقت بسر ما أضمرته	فهو الصحيح وإن يكن بالأرمني

فقد كان الشيخ محمد الشويمي إذا احتاج المطبخ يوما وهم في« أشمون جريس» فلقاسا أعطوه خرجا وحمارا، وقالوا له اشتر لنا قلقاسا من الغيط، فخرج إلى ناحية البرية فلخ لهم الحلفاء حتى

---

(١) الموت بيد الله سبحانه وتعالى وربما لو صحت هذه الرواية أن يكون ذلك مصادفة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٥].

امتلأ الخرج والناس ينظرون فوجدوا الحلفاء فلقاسنا ورجع بالفلوس فاعتقده الناس من ذلك اليوم.

وعمل سنة جمالاً وهو في أشمون جريس فكان لا يحمل الجمل الاقتة واحدة، فقالوا له في ذلك فقال: دقواقتتي وحمل غيري فدقوا فتتة فجاءت خمسة أرادب[1].

ودخل على الشيخ عبد السلام القليبي فقير مريض فأمر جاريته بخدمته فاستمرت تخدمه إلى أن عوفي، فراودها عن نفسها وجاذبها على ذلك فأبت، وذهبت إلى الشيخ فأعلمته.

فقال لها: اكتمي سرك وأنت حرة فذهب إليه فلم يجده في الموضع الذي أنزله فيه، فتتبعه خارج المنزل فرآه ماشيًا على البحر الذي بين قليب والنحارية فقال له: ما هذا وذاك؟ فالتفت إليه وقال لا ينبغي لنا أن تخدمنا الجارية ونرحل عنها بغير مكافأة على خدمتها بدون العتق.

وكان يقول: إياكم والإنكار على من سمعتموه من الصالحين يقول الموتى تكلمني في قبورهم فإن ذلك يقع لهم.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يسأل الفقراء القاطنين عنده عن أحوالهم ويباسطهم.

فقال لواحد منهم يومًا وكان كثير العبادة والناس يعتقدونه مالي أراك يا ولدي كثير العبادة ناقص الدرجة، لعل والدك مات غضبانًا عليك، قال: نعم، قال: فاذهب بنا إلى قبره فذهب هو والشيخ يوسف الكردي مع الشيخ.

---

(١) هذه أمور تلهج بها العامة في الريف حتى الآن عن أصحاب أضرحة في بلادهم وكلها أمور ليس لها أي دليل.

قال الشيخ يوسف: فوالله لقد رأيت والده يخرج من القبر ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ، فلما استوى قائما قال له الشيخ: يا حاج أحمد الفقراء جاءوا شافعين عندك لترضى على ولدك.

فقال: قد رضيت عنه فسأله الشيخ عن شيء من أحوال القبور فأجابه: فبكى الشيخ ثم قال له ارجع مكانك فرجع[١].

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من الصالحين يقبل من الظلمة ما يعطونه له فإياكم أن تعترضوا عليه ولو بالقلب، فإن صاحب النور كالبناء يعرف موضع الطوبة التي يضعها فيه ويصلح لها.

وقد كان الأمراء والأكابر يأتون بالأطعمة الفاخرة والحلوى إلى سيدي عمر الكردي فيطعمها للحشاشين الذين يتفرجون بالبرك خارج القاهرة، ويقول لهم: يا إخواني مالي أرى أعينكم حمرا لا يزيدهم على ذلك وكان النقباء يلومونه على عدم إطعامهم من تلك الأطعمة والحلوى.

فقال لهم يوما: املئوا لنا صحنا من هذه الحلوى وغطوه، قوموا بنا نأكله في الجزيرة التي وسط البركة، فمضوا فقال الشيخ: اكشفوا وكلوا، فكشفوا فإذا هي خنافس فقال: كلوا فقالوا: كيف نأكل الخنافس، فقال: تلومونني على عدم إطعامكم الخنافس كل يوم.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من الصالحين يأكل من طعام الظلمة وأعوانهم فلا تبادروا إلى الإنكار فإن الله يستخرج لعباده الصالحين الحلال بين دم الحرام وفرث الشبهات كما يستخرج اللبن[٢].

---

(١) هذا شيء لا يصح ولا دليل عليه.

(٢) لا يجوز أكل الحرام إلا للضرورة الملجئة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٣].

وقد دعى أبو السعود القليوبي مرة هو وأصحابه إلى طعام حرام فمنعهم من أكل ذلك الطعام وأكل وحده فلما خرجوا قال لهم إنما منعتكم من أكله لأنه ليس بحلال ثم تنفس فخرج من أنفه دخان عظيم كالعمود وتصاعد في الجو حتى غاب عن أبصار الناس ثم خرج من فمه عمود آخر وصعد في الجو ثم قال الشيخ هذا الذي رأيتموه هو الذي أكلته عنكم.

وكان يقول: عليكم بتصديق كرامات الأولياء ولو كان العقل يستحيلها وكسروا ميزان عقولكم.

وقد وقع للشيخ يوسف الكردي أنه قال يوما لشيخه سيدي إبراهيم المتبولي اشتقت إلى أهلي في بلاد الأكراد، وكان ذلك بعد العصر، فقال ما شاء الله كان.

قال: ثم دخلت الخلوة أقرأ ورد العصر، فرأيت نفسي داخلا بلدي والناس يسلمون علي ورفعت الأعلام قدامي، فدخلت دارنا فسلمت على أبي وأمي ومكثت عندهم أخطب في الجامع وأقرئ الأطفال مدة تسعة أشهر فقوى اشتياقي إلى الشيخ فشاورت الوالد والوالدة في السفر إلى الشيخ فأذنا لي.

فخرجت إلى موضع خارج البلد فإذا أنا في خلوتي ببركة الحاج فخرجت لأسلم على إخواني فلم يسلموا علي فقلت لهم لم لا تسلموا علي وأخبرتهم بسفري فقالوا لا حول ولا قوة إلا بالله حصل له جنون، فعلم الشيخ بذلك فقال: يا ولدي اكتم سرك.

ثم بعد ثلاث سنين جاءت والدته بصحبة والده فلما سلما على الشيخ قال والده للشيخ: يا سيدي لولا خاطرك ما خلينا يوسف يجيء إلى سنة، فعند ذلك علم الفقراء بكرامة الشيخ وتعجبوا من ذلك.

فقال الشيخ القدرة صالحة لأكثر من ذلك.

وكان يقول: إياكم والمبادرة إلى سوء الظن فقد كان الشيخ أحمد الحلفاوي يمشي بحلفايته بحضرة الشيخ مدين رحمه الله في الزاوية، وكان الشيخ أحمد الشويمي يتأثر من ذلك في نفسه فقال له مرة: أنت قليل الأدب فسكت ولم يجبه.

فلما كان قبل الغروب آخر اليوم الثالث جاء له الشويمي وصالحه، وقال له: لم يفتح علي بشيء من مواهب الحق منذ أسأت بك الظن.

فبلغ ذلك سيدي مدين فقال أنا رأيته يمشي بحلفايته هذه في الجنة.

وقال الشيخ الكبير سيدي محمد الشناوي رحمه الله: إذا زار تلميذ أحدكم شخصا من أقرانكم فلم يبش في وجهه ولم يقدم له طعاما فلا يجوز لكم حمله على أنه يكرهكم، وإنما يجب حمله على أنه إنما فعل ذلك مع مريدكم ومصلحة لمريدكم فخاف إذا أكرمه أن يميل إليه بالمحبة فيعدم النفع بكم حتى يصير مذبذبا في أي الشيخين أعلى من الآخر.

وكان يقول سلموا للفقراء في جميع أحوالهم ووقائعهم الخارقة للعادة.

وقد وقع لسيدي الشيخ علي المرصفي إنه قرأ في يوم وليلة ثلاثمائة وستين ألف ختمة كل درجة ألف ختمة[1].

وكان يقول: إياكم والإنكار على العارفين فيما سمعتموه من كلامهم الذي يكون في مقام الاستطالة فإن الرتبة تقضي لصاحبها أن ينطق بما ينطق.

(١) هذا شيء لا يصدقه عقل، وكيف استطاع عد كل ذلك.

ومن ذلك قول سيدي إبراهيم الدسوقي أنا موسى عليه الصلاة والسلام في مناجاته، أنا علي في حملاته، وقد كنت أنا وأولياء الله في الأزل بين يدي الله تعالى وبين يدي رسول الله ﷺ وكان اجتماعنا على الدرة البيضاء فأمرني رسول الله ﷺ أن أخلع على جميع الأولياء فخلعت عليهم بيدي[1].

وكان يقول: احملوا العلماء والصالحين الذين يدخلون على الأمراء ولا ينصحونهم ولا يأمرونهم بمعروف أنهم لم يتركوا ذلك إلا عجزا، أو أنهم لم يروا عندهم منكرا.

وكذلك إذا رأيتموهم فرشوا لهم سجادات للصلاة فاحملوهم على أنهم إنما يفعلون ذلك تعظيما لحضرة خطاب الحق تعالى، لا فخرا ولا كبرا ولا تعلموا بقرائن التكبر في مثل ذلك، إذ القرائن وإن جعلها العلماء إحدى الأدلة، فإنما ذلك في أماكن فيها احتياط للدين.

وأما العمل بها في مثل حمل العلماء والصالحين على التكبر والفخر فلا يجوز العمل بها، لأنه مبني على سوء الظن بهم وذلك حرام بإجماع.

وكان الشيخ المحقق أفضل الدين الأزهري رحمه الله يقول: عليكم برؤية محاسن العلماء والصالحين وعدم إقامة الميزان العقلي على جميع ما يظهر منهم، وإياكم أن تقولوا أين العلماء العاملون بعلمهم فكل العلماء عاملون بعلمهم.

وبيان ذلك أن العالم إذا لم يعمل بعلمه من طريق المأمورات والمنهيات الشرعية بالامتثال والاجتناب، عمل بعلمه من طريق أخرى، وهي أنه لابد للعالم من الندم والاستغفار إذا وقع في

---

(١) هذه أمور غيبية علمها عند الله، فلا يجوز الخوض فيها، ولا دليل على ما ذكر.

معصية فلولا علمه بتحريم ذلك الفعل ما اهتدى للتوبة والاستغفار والندم.

فعلمه هو الذي جعله يتوب ويستغفر فقد عمل بعلمه من هذا الوجه، وهذا خفي غريب قل من يتنبه له، وغالب الناس لا يسمى العامل بعلمه إلا من لم يخل بشيء من المأمورات ولا يقع في شيء من المنهيات.

وأما من وقع ثم تاب فلا يسمونه عاملا بعلمه أبدا وفي ذلك ما لا يخفى، إذ عدم العمل بالعلم جملة إنما يكون لغير المكلف أو لمن أصر على الذنوب ولم يتب منها حتى مات، وقليل وقوع ذلك في العلماء من هذه الأمة أو نادر فيهم.

وكان يقول عليك بكثرة الاعتقاد في أهل عصرك من العلماء والصوفية، وعليك بمحبتهم فإن محبتهم واجبة كالاعتقاد فيهم، ولا تطالب أحدا منهم بكرامة فإنه لا يطالب بالكرامة إلا من قال أنا صالح فاعتقدوني.

ومعلوم أن الاستقامة على الشريعة هي أعظم الكرامات كما قاله الجنيد وغيره.

وكان يقول: إذا رأيتم من أفنى عمره في علم القوم فإياكم أن تقولوا أنه مغرور فقد ذكر الشيخ محمد الشاذلي أنه رأى النبي ﷺ في المنام وقال له يا رسول الله إني متطفل في علم التصوف، فقال اقرأ كلام القوم فإن المتطفل على هذا العلم هو الولي، وأما العالم به فهو كالنجم الذي لا يدرك.

وكان يقول: احملوا من ترونه على معصية أو بلغكم عنه من ثقة على أنه تاب من وقتها وندم في سريرته وإن لم تقدروا على ذلك فاعذروه كي لا تحقروه.

وقد كان الإمام منصور بن عمار يقول عجبا للفقراء كيف يهجرون إخوانهم على زلة واحدة وقعت منهم سنين ولا يحملونهم على التوبة.

وإذا رأوا ظالما يأخذ مالا بغير حق ثم يتوارى عنهم بجدار يقولون هو حلال لاحتمال أن يكون قد أبدله بغيره، ولا يرون أن الواقع في الزلة تاب من زلته بعد مدة والقاعدة واحدة.

وقد سمعت سيدي عليا الخواص يقول مادام الحق تعالى يخلق المعصية للعبد فلا تمكنه التوبة النصوح التي ما بعدها ذنب أبدا، فإذا رجع الحق سبحانه عن خلق المعصية للعبد تاب العبد لا محالة، ولو قدر أنه أراد أن يعصى ما وجد ما يعصى به[1].

ثم لا يخفى أن من كان وليا لله تعالى لا تتغير ولايته إذا وقع في معصية، ولا يكون ذلك قادحا في ولايته، ولا مزيلا لها لأن الحقائق الوضعية لا تقدح فيها النقائص الكسبية.

وفي الحديث: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» أي فكما أن المعدن في أصله صحيح لا يخرج عن معدنيته كذلك المؤمن الحقيقي أو الولي الحقيقي لا يخرجه ما جرى على جوارحه من النقائص عن حقيقة إيمانه أو ولايته بشرطه.

قلت: شرطه عدم الإصرار والمبادرة إلى التوبة والاستغفار والله أعلم.

وكان يقول: إذا رأيتم شخصا يصلي في آخر صف مثلا ويترك الصفوف أمامه ناقصة، فاحملوه على أنه إنما فعل ذلك حياء من الله تعالى، لا على أنه إنما يفعل ذلك تهاونا بالسنة والثواب، فإنه لا يجوز حمله على ذلك.

---

(١) هذا مثل كلام القدرية والجبرية، والصحيح أن الإنسان حر فهو يعصى ويتوب باختياره وكامل حريته ولذلك فالعاصي يعاقبه الله على معصيته، وإن تاب عنها قبل الله توبته.

وقد رؤى شخص يصلي على باب المسجد فقيل له لما لا تدخل المسجد فتصلي فيه؟ فقال: أستحيي أن أدخل بيته وقد عصيته[1].

وقد سمعت عليا الخواص يقول: حكم كمل العارفين إذا وقف أحدهم بين يدي ربه تعالى في الصلاة حكم من فسق في حريم الوالي ثم أتوا به إليه فهو يخاف من القرب من حضرته حتى يحصل رضا الوالي عنه أو العفو.

وكثيرا ما يذنب العبد الذنب العظيم فيظن بتقادم عهده أن الله قد غفر له، والحال أنه لم يزل ساخطا عليه إلى ذلك الوقت، فيصير يزاحم على الوقوف في الصف الأول لظنه أن الله قد غفر له ذنوبه حتى لا يكاد يستحضر ذنبه أصلا.

وما هكذا درج السلف الصالح فقد كان أحدهم إذا وقع في ذنب لا يزال خجلا من الله تعالى خائفا من عقابه حتى يلقاه.

وكان يقول: احلموا من ترونه من العلماء والصالحين يعظم الولاة ويكرمهم على إنه إنما يفعل لغرض شرعي، وقد سمعت سيدي عليا الخواص يقول الأدب مع ولاة الأمور مطلوب شرعا أو عرفا بحسب اعوجاجهم واستقامتهم.

وسمعته مرة أخرى يقول: ينبغي لنا أن نعظم الولاة ونكرمهم أدبا مع الله الذي ولاهم رقابنا وحكمهم فينا، وسمعته مرة أخرى يقول إنما نهانا الشارع ﷺ عن التواضع للأغنياء إذا طمعنا في دنياهم، أو علمنا بأن تعظيمنا لهم يزيدهم طغيانا وغفلة عن الله.

---

(١) الصحيح أن يتوب من معصيته والله سبحانه﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ [سورة غافر: الآية ٣].

وأما إذا تعففنا عما في أيديهم وتعاطينا الأسباب التي تميل قلوبهم إلينا حتى يحبونا ويقبلوا شفاعتنا في مظلوم مثلا، فلا حرج علينا في ذلك والأعمال بالنيات.

قال: ومر ابن موسى المحتسب أيام السلطان الغوري عليه وهو في حانوته، فنزل الشيخ وقبل ركبته وهو راكب ودعا له، فأنكر بعض الفقهاء ذلك على الشيخ، فقال: إنما قبلت ركبته أدبا مع الله تعالى الذي ولاه وجعل الناس يسمعون قوله.

فإذا خفت البضائع من السوق يبعث مناديا ينادي الذين يحتكرون الطعام عن المحتاجين اخرجوا ما عندكم فيخرجون ما عندهم حتى يمتلئ السوق أفتقدر أنت يا فقيه على مثل ذلك فسكت الفقيه.

ثم حكى الشيخ: إن بعض الفقراء رأى ابن أبي جمرة وهو جالس على كرسي وعليه خلعة خضراء والأنبياء والأولياء واقفون بين يديه غاضون طرفهم فاستنكر ذلك[1].

وقال: كيف تقف الأنبياء بين يدي واحد من الناس، فقص ذلك على بعض أولياء العصر فقال: لا تستنكر ذلك يا أخي فإن أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس هو مع لابس الخلعة إنما هو مع الله الذي ألبسه فزال الإشكال. ثم قال له أما رأيت أكابر الدولة وهم راكبون أمام بعض غلمان السلطان إذا ألبسه خلعة أدبا مع السلطان لا مع الغلام.

وعن الشيخ مكين الدين الأسمر قال: دخلت مسجد الديماس بالإسكندرية فوجدت النبي المدفون هناك قائما يصلي وعليه عباءة مخططة فقال تقدم فصل فقلت له تقدم أنت تفضل،

(١) هذه أمور مبالغ فيها، والأنبياء أعلى مقاما وأعز قدرا، والمثال الذي ضربه بعد ذلك لا يليق بمنزلتهم.

فقال: تقدم فصل أنت فإنكم من آل نبي لا ينبغي لنا التقدم عليه، قال: فقلت له بحق هذا النبي ألا تقدمت وصليت.

قال: فأنا لا أقول بحق هذا النبي ألا وقد وضع فمه على في إجلالا للفظة النبي كي لا تبرز في الهواء[1]، قال: فتقدمت فصليت فأدب النبي مع الشيخ مكين الدين بتقديمه وصلاته خلفه إنما هو مع سيد الأولين والآخرين ﷺ وعلى آله وصحبه وأزواجه أمهات المؤمنين وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين[2].

قال: كان إذا بلغه عن أحد من أرباب الدولة أو غيرهم أنه قاصد السلام عليه يذهب إليه قبل أن يأتي، ويقول: كل خطوة يمشيها الناس إلى الفقير تنقص من مقامه درجة.

فقيل له: فكيف تذهب أنت إليهم، فقال: أنا أذهب إليهم وأسأل الله أن لا ينقص درجتهم.

قال: وسمعته مرة أخرى يقول حين لامه بعض الناس على زيارته لبعض الأكابر إنما ذم السلف الوقوف على أبواب الأمراء لمن يخشى الفتنة، أو وقف يطلب منهم شيئا.

ونحن بحمد الله لا نركن إليهم إذا دخلنا عليهم لزيارة أو عيادة ولو أحبونا واعتقدونا وقبلوا شفاعتنا وقبلوا أيدينا وأرجلنا ولو أنهم أعطونا شيئا لا نقبله منهم.

وسمعته مرة أخرى يقول في قولهم بئس الفقير بباب الأمير، هذا في حق من يأتي الأمير يسأله الدنيا، فإن كان في شفاعة ونحوها فنعم الفقير بباب الأمير.

---

(١) في الأصل الهوى.

(٢) هذه أمور لا دليل عليها.

قال: وكان إذا زاره أحد من الأكابر يمشي معه إلى خارج باب داره يشيعه، ويقول: حصل لنا سرور برؤيتكم اليوم، وإذا أرسل له هدية ردها ويقول لعامله قل له أرسلها إلى أحد من المحتاجين إليها فإنه أكثر أجرا له.

قال: وقد قال الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية ما نصه: ينبغي للفقير أن يعظم كل وارد عليه من ولاة الزمان، لأن أحدهم لم يخرج لزيارة ذلك الفقير حتى خلع عظمة نفسه وجعلها دون ذلك الفقير، ولو أنه كان نظر إلى عظمة نفسه ما كان طلع له زاويته، ولكان أرسل إليه ليحضر، ومن خلع عظمة نفسه قبل أن يصعد إلينا فما لقينا إلا وهو فقير حقير فوجب إكرامه.

فإن اعترض معترض بأن ذلك الأمير مثلا ظالم لا ينبغي إكرامه، قلنا: ونحن كذلك ظالمون لأنفسنا بالمعاصي ولغيرنا ولو بسوء الظن به في وقت من الأوقات فظالم، قام لظالم وأكرمه فلا مزية لأحدهما على الآخر بالإنصاف.

وكان يقول: إذا حضرتم عند أحد من الأكابر وهو في النزع فلقنه أحد فسمعتموه يقول لا، فإياكم أن تظنوا أنه فتن، فإنه إنما يقول لا للشياطين الذين يحضرون الأكابر ليفتنوهم عن دين الإسلام، كما وقع للإمام أحمد بن حنبل وغيره، وكذلك إذا رأيتم أحدا من الأكابر اشتد عليه النزع فإياكم أن تظنوا أن ذلك بسبب ميله إلى الدنيا فإن ذلك لا يجوز.

وقد سمعت سيدي عليا الخواص يقول: طلوع الروح يهون ويصعب على العبد بحسب كثرة مجاهدته لنفسه وقلتها، فإن صعب على العبد طلوع روحه فإنما ذلك لبقية مجاهدة بقيت عليه من الميل إلى شهوات الدنيا وعلاقتها، بخلاف من لم يبق عنده ميل إلى شيء من ذلك، فلا يحتاج إلى جذب روحه بشدة.

بل حكمه حكم من ينتقل من دار إلى دار، اللهم إلا أن يكون من الأنبياء أو أكابر الأولياء، فإن صعوبة طلوع روحهم ليست بسبب ميل إلى الدنيا وإنما ذلك لحبهم لطاعة الله في دار الدنيا والقيام بشعائر دينه فيها حبا فيه عز وجل، واهتماما بقومهم الذين كانوا يرشدونهم إلى طريق الله حيث ماتوا ولم يبلغوا بهم مرتبة الكمال ونحو ذلك من الأغراض الصحيحة اللائقة بهم.

وكان يقول: إذا رأيتم عالما أو صالحا يأخذ من الظلمة مالا فاحملوه على أنه يفرقه على أصحاب الضرورات بطريقه الشرعي، ولا يأكل هو ولا عياله منه شيئا.

وإذا رأيتم عالما توقف عن الكتابة على سؤال متعلق بأمور السلطنة فاحملوه على خوفه الفتنة التي تبيح له كتم العلم أصلا، كإخراج وظيفته التي يتقوت منها هو وعياله أو نفيه من بلده ونحو ذلك.

وإذا رأيتم عالما أو شيخا نفر عنه أصحابه فاحملوه على أن ذلك من اعتناء الحق تعالى به كي لا يشتغل بغيره، ولا يجوز حمله على أن أصحابه ما نفروا عنه إلا بسبب عصيانه.

وإذا رأيتم أحدا من القضاة والأمراء والمباشرين يتغالى في ثمن العبيد والمماليك الصباح الوجوه، فإياكم أن تسيئوا به الظن وتقولوا لولا أنه يقع في الفاحشة فيهم ما تغالى في ثمنهم، فإن ذلك لا يجوز إلا أن حفت بذلك القرائن وليس كل من يتغالى في ثمن العَبيد يفعل ذلك لأجل الفاحشة.

وإنما الأكابر إذا وسع الله عليهم الدنيا يصير أحدهم يحب الجمال في ثيابه ودوره ومراكبه مشاكلة لحاله، من غير أن يتعدى ذلك إلى فعل حرام، فلا يكاد أحدهم يحب عجوزا ولا شوهاء ولا عبدا وجهه غير صبيح عادة.

ولا يحب أن يستخدم من المماليك والعبيد إلا صباح الوجوه، ويحصل عندهم غم برؤية غيرهم وقد بلغنا أن من أدب جماعة السلطان معه أن لا يوقفوا بين يديه أجذم ولا أبرص، فإن وقع أن أحدا من الوزراء حصل له شيء من ذلك عزلوه أو استنابوا غيره رجلا سالما من ذلك غيرة على السلطان أن يقع بصره على ناقص.

فالأكابر غائبون عما يظن الفسقة فيهم من السوء قياسا على نفوسهم الغوية وقد يحمي الله العبد وهو بين المغاني ويوقعه بين العباد.

وقد كان الشيخ محمد الإخفافي يبيع الخفاف للنساء ويقول: ما حدثتني نفسي قط بأن أنظر إلى ساق امرأة ولا يدها ولا وجهها، وكان له أخ عابد يركب السبع في شوارع بغداد والناس يتبركون به، فجاء مرة وجلس عند أخيه في السوق فنظر إلى ساق امرأة فافتتن بها وعصى عليه السبع فقال له أخوه إنما الحماية من الله لا بحولي ولا بقوتي.

ووقع أن القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي الذي أفتى بقتل الحجاج دخل على المعتضد فرأى على رأسه أحداثا صباح الوجوه من الروم، قال القاضي: فخطر في نفسي شيء فلما أردت القيام قال لي المعتضد: قف فوقفت ثم قال: والله يا قاضي ما حللت سراويلي على حرام قط منذ وعيت على نفسي من الصغر، فخجل القاضي واستغفر من سوء ظنه.

وكان يقول: إياكم والإنكار على من ترونه من الصالحين صاحب أحدا من الظلمة، فربما صاحبه ليعظه ويرجعه عن الظلم، أو يشاركه في البلاء النازل عليه بسبب ظلمه وغفلته، أو ليأخذ بيده في عرصات القيامة.

وفي مناقب سيدي مدين الزاهد أن يوسف ناظر الخواص بمصر ظلم شخصا من تجار الحجاز، وكان مستندا لبعض الأولياء، فشكا له من يوسف، فتوجه فيه إلى الله تعالى فرآه في مقصورة من حديد مكتوب عليها، من خارج مدينة مدين، فأخبر التاجر بذلك وقال: من هو مدين هذا؟ فقال شيخ في مصر مستند إليه يوسف، فقال: لا طاقة لي به اذهب إليه فاشكونه له.

وكان يقول: إياكم والمبادرة إلى الإنكار على شيخ لم يعتن بأمر تلامذته كل الاعتناء في تعليمهم الآداب والواجبات الشرعية، فربما كان ذلك الشيخ في حال قاهر يمنعه من ذلك.

وكان يقول: إياكم أن تسيئوا الظن بمن رأيتموه من العلماء والصالحين يجيب عن نفسه، فتقولوا لو كان هذا صالحا لاكتفى بعلم الحق تعالى فيه ولم يلتفت إلى الناس فإن للعلماء والصالحين مشاهد في ذلك صحيحة.

فمنهم من يكون مشهده أن أقواله وأفعاله التي نقصه الناس لأجلها خلق الله تعالى فيغار لله أن ينقص أحد خلقه وحكمه وتقديره.

ومنهم من يكون مشهده أن نفسه أمانة الله وأنها وديعة عنده أمنه عليها وأمره بكف الأذى عنها ودفع كل ما يحصل لها به تكدير وتشويش.

ومنهم من يكون مشهده أن نفسه خلق الله تعالى فيتكدر ممن يقول له يا أعور مثلا من حيث أنه يعيب خلق الله.

ومنهم من يكون مشهده الشفقة على أعدائه، فيخاف أن سكت على ما يقولونه فيه أن ينقص دينهم، فيرد عن نفسه حتى يكذبهم الناس فيخف عنهم الإثم.

ومنهم من يكون مشهده أنه عبد الله ليس له من نفسه شيء، وأنه يجب على كل أحد احترام عبد الله، فيغار على نفسه من حيث كونه عبد الله، لا لحظ نفسه بل ربما لم يخطر ذلك بباله.

ومنهم من يكون مشهده محبة الخير والنفع لإخوانه على يديه فيخاف إن سكت على تنقيص الأعداء والحاسدين أن يحصل له استهانة في نفوس تلامذته فلا يصيرون ينتفعون به وهكذا.

وكان الشيخ الكبير سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمه الله يقول: إذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين دعي إلى شفاعة فقال لمن سألوه الشفاعة أو غيرهم توجهوا أمامي انتظروني عند الأمير مثلا المشفوع عنده، فإذا رأيتموني فقوموا لي وعظموني وقبلوا يدي ورجلي فإياكم أن تظنوا به أنه يفعل ذلك طلبا لعلو المقام عند الناس، فإن ذلك لا يجوز بل احملوه على المحامل الحسنة.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد يفعل مثل ذلك وكان من العارفين أصحاب التصريف، واحملوا أخاكم إذا انقطع عن زيارتكم مثلا أو عيادتكم وصدر منه جفاء على نية صالحة.

وإذا ذكر في حضرتكم فوصف بالجفاء والتقصير فازجروا من وصفه بذلك وقولوا فلان مودته ثابتة، وإذا ثبتت المحبة فلا بأس ببعد الزيارة.

وفي الأرواح أرواح يزورون بعضهم ويتلاقون في عالم الغيب أو أنه لم يجد نية صالحة يزورنا بها ويعودنا.

وإذا سمعتم عن أحد من العلماء والصالحين أو غيرهم من التجار والأمراء أنه يرد السائل، فاحملوه على أنه إنما يفعل ذلك لحكمة لا لبخل تخلقا بأخلاق الله تعالى، فإن من أسمائه تعالى المعطي المانع.

والله لا يمنع لبخل بل لحكمة وأنه كشف له أن ذلك السائل لم يكن له عنده رزق، وكذلك إذا سمعتم عن أحد من العلماء والصالحين أو غيرهم أنه ما رؤي يتصدق فاحملوه على أنه يتصدق سرا.

وقد كان الإمام زين العابدين ينفق سرا ويتصدق سرا، حتى كان غالب أهل المدينة الشريفة يرمونه بالبخل، فلما مات وجدوه كان يقوت مائة بيت من أهل المدينة.

وكذلك كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا يسر بصدقته حتى كان غالب الناس يعتقد أنه بخيل، وما كان في علماء مصر أكثر صدقة منه وكان إذا أراد أن يعطي أحدا شيئا يقول صافحني لأجل السنة ويضع له في كفه ما قسم له.

وتارة يقول هل هنا أحد، فإن قيل نعم، يقول لمن يريد أن يعطيه شيئا: يا فلان عد إلينا مرة فإن لي بك حاجة.

وكذلك إن سمعتم عن أحد من العلماء والصالحين أنه تكدر من جماعة لم يقوموا له في بعض المحافل فاحملوه على أنه ما تكدر لحظ نفسه، بل ليعلمهم التواضع وسلوك طريق الأدب مع المسلمين.

وإذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين يرخي له طيلسانا فاحملوه على أنه يفعل ذلك حياء من الله تعالى ومن خلقه، وكفا للبصر عن فضول النظر، واقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين.

فقد كان أبو بكر وعمر بن الخطاب وأنس بن مالك يتقنعون بارديتهم غالبا، لا على أنهم إنما يفعلون ذلك تمشيخا ومحبة أن يعرفوا فإن ذلك لا يجوز.

وقد كان الشيخ محمد المغربي إذا مشى يضع يده على كتف شخص ويغمض عينيه حتى لا ينظر إلى أحد إلى أن يدخل بيته أو المسجد، قال: وإنما صح جعل الطيلسان بقصد الحياء من الله، وإن كان تعالى لا يحجبه شيء لأن الشرع قد تبع العرف في مثل ذلك حال الصلاة وغيرها.

فإياك والمبادرة إلى الاعتراض على من يفعل مثل ذلك فتقع في الإثم والجهل، أما الإثم فلكونك تظن بهم أنهم يفعلون ذلك تمشيخا ومحبة أن يعرفوا، وأما الجهل فلكونك جهلت أنه من سنة السلف الصالح.

وكان يقول: إذا رأيتم شخصا يكثر من التلطخ بالروائح الطيبة فلا تحملوه على الترفه بل احملوه على أنه يكثر من ذلك طلبا للزيادة في عقله، فقد ورد من طاب زاد عقله، ومن نظف ثوبه قل همه، ومن قل كلامه توفرت حسناته.

وإذا رأيتم شخصا أعطى شيئا من الدنيا فرمى به فاحملوه على أنه إنما يفعل ذلك تهاونا بالدنيا في عيون الحاضرين ليقتدوا به في ذلك، وإياكم أن تقولوا أنه نصاب كبير يرمي الذهب والفضة ليتسامع الناس بذلك فيعتقدوه فيأتوه بما يطلب فإن ذلك سوء ظن به.

وإذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين دعي إلى وليمة فأجاب ثم امتنع، فاحملوه على محمل حسن، فربما رأى شيئا أوجب الامتناع عن الحضور، أو كان مشهده نقائصه وصاحب هذا المشهد يستحي أن يجالس أحدا من المسلمين لا سيما في المحافل كالولائم وختوم الدروس كما يعرف ذلك من ذاق مذاق العارفين.

وكان يقول: إياك والاعتراض على من تراه متجملا بالثياب

من العلماء والصالحين فتقول ليس هذا بزاهد في الدنيا، والسلف الصالح ما كانوا إلا على التقشف والرثاثة في الملبس فتقع في إثم كبير فإن ذلك لا ينافي الزهد إذ حقيقة الزهد في الدنيا هو ترك الميل إليها بالمحبة لا بخلو اليد ورثاثة الهيئة.

وإنما درج جمهور الصحابة والتابعين على خلو اليد منها ليقتدي بهم المحجوبون عن مشاهد الأكابر، فلذلك أظهروا لهم الزهد فيها بخلو اليد، ونهوهم عن التبسط فيها خوفا عليهم أن يدخلوا في محبتها فلا يهتدون بعد ذلك للخروج عن حبها والمزاحمة عليها، فإن الكاملين لا يشغلهم عن الله شيء في الكونين بخلاف القاصرين.

ومعلوم أن من أدام النظر في هذا الشأن إلى العلماء ربما قام به داء الحسد واستكثر عليهم ما هم فيه من أمتعة الدنيا ووظائفها.

ومن وصية علي الخواص: إياكم أن تستكثروا على علماء الزمان شيئا من أمتعة الدنيا ووظائفها، فإن ذلك من توابع ناموس العلم، ولا تقولوا كغيركم من القاصرين قل أن يسلم من اتسع في الدنيا من الشبهات والحرام، بل قولوا هم أعلم منا بالحلال والحرام.

وقد كان الإمام الشافعي يقول: لابد للعالم من مال وجاه حتى لا يذل لأحد ولا يحتاج إلى أحد.

وذكر الإمام الشافعي في رحلته إلى العراق قال: لما قدمت العراق اجتمعت بمحمد بن الحسن في الجامع، فعزم على أن آتي منزله فأجبته إلى ذلك، فقدم إلى بغلته بسرج محلى بالذهب والفضة، فذكرت ما فارقت عليه مالكا من ضيق المعيشة وبكيت،

فقال لي ابن الحسن: لا يروعك يا أبا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكسب.

وإني أخرج زكاة مالي في كل سنة، وما أظن أن الله يطالبني في فرض فيه ونعم المال للرجل يسر به الصديق ويصل به القريب.

قال الشافعي: ثم إنه كساني حلة بألف دينار لما أردت السفر، وزودني بثلاثة آلاف درهم، وعرض علي أني أشاطره في جميع ماله فأبيت، ثم إني اجتمعت بالزعفراني فرأيته في دنيا واسعة فأعطاني أربعين ألف درهم لما عزمت على السفر وعرض علي أربع ضياع وقال: قد سمحت لك بها فلم أقبل.

فورد علي جماعة من الحجاز فسألتهم عن الإمام مالك فذكروا لي إن الله وسع عليه وأنه صار له ثلاثمائة جارية تنوب إحداهن منه في السنة ليلة واحدة.

قال: فلما سافرت إليه ودخلت المدينة الشريفة وافيته في المسجد في صلاة العصر فصليت معه، ثم نظرت فإذا كرسي من حديد عليه مخدة من قباطي مصر مكتوب عليها بالحرير لا إله إلا الله محمد رسول الله، وحول الكرسي أربعمائة نفر أو يزيدون فبينما أنا كذلك إذ رأيت مالكا قد دخل من باب النبي ﷺ وقد فاح عطره في المسجد وأربعة تحمل أذياله، فلما وصل إلى الكرسي قام الحاضرون كلهم وجلس على الكرسي فألقى مسألة في جراح العمد، فما زال يتكلم في العلم حتى نزل عن الكرسي فقمت وسلمت عليه فضمني إلى صدره ثم أخذ بيدي وأتى بي إلى منزله، فرأيت بناء غير البناء الأول الذي كنت أعهده قبل رحلتي إلى العراق فبكيت، فقال: مم بكاؤك يا أبا عبد الله كأنك ظننت إنا بعنا الآخرة بالدنيا، طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر.

وقد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويرد الصدقة، وأن لي ثلاثمائة خلعة من خراسان، وثلاثمائة من أقباطي مصر، وعندي من العبيد مثلها وهي كلها هدية مني إليك، وفي صناديقي تلك خمسة آلاف دينار نصفها هدية مني إليك فقلت إنك موروث وأنا موروث وما جئتك لمثل ذلك فتبسم في وجهي.

وقال: أبيت إلا العلم فلما أردت السفر إلى مكة خرج معي حافيا ماشيا، فقلت له: ألا تركب دابة فقال أستحي من سيدي رسول الله ﷺ أن أطأ مكان قدمه الشريف بحافر دابة.

قال الشافعي فسررت بذلك وعلمت أن ورعه على حاله لم ينقص، وإن كثرة المال جمال العلماء لا يضرهم إن شاء الله تعالى، وأعطاني مالا جزيلا فلما دخلت مكة فرقته على بني عمي بإشارة والدتي خوفا علي أن أفتخر عليهم، فلما بلغه ذلك استحسنه مني ووعدني بأن يرسل إلي في كل سنة مثل ذلك فلما مات ضاق علي الحجاز فخرجت طالبا أرض مصر.

وكذلك بلغنا عن أشهب صاحب الإمام مالك أنه كان في سعة من الدنيا وكانت معيشته معيشة الملوك.

وكانت بلاد جزيرة مصر إقطاعا للإمام الليث بن سعد، وكان خراجها في كل سنة مائة ألف دينار ولم تجب عليه زكاة قط.

وكان الفخر الرازي له ألف مملوك خلاف الجواري والخدم فقد علمت يا أخي أن ناموس العلم لا يتم إلا باتساع الدنيا على العلماء كالملوك، فكما ينفق الملك على جنده كذلك العالم ينفق على طلبة العلم يحفظونه من العدو الباطن فكمال الدين لا يتم إلا بالملوك والعلماء.

فإياك يا أخي أن تعترض ولو بقلبك على أحد من علماء زمانك إذا تشبه بمن ذكر من العلماء في توسعة الدنيا ووظائفها وملابسها ومراكبها، فإن ذلك من الجهل بك، فإن العلماء والأولياء على أقدام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن الأنبياء من كان له مال كالسيد إبراهيم والسيد يوسف والسيد سليمان والسيد أيوب، ومنهم من لا مال له كالسيد نوح والسيد عيسى والسيد يحيى ووالده على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

وممن كان في سعة من الدنيا يعني من الأولياء سيدي عبد القادر الجيلي وسيدي محمد الحنفي وسيدي علي وفا وسيدي مدين، فكل واحد منهم قائم بمرتبته كامل فيها لا يضره سعة الدنيا عليه ولا ضيقها، وما حث الأكابر أصحابهم على الزهد في الدنيا إلا خوفا عليهم من ذل الطمع والميل إليها لا غير، وإلا فلو جاءت الدنيا بغير طمع ولا ميل من حلال لنبي كان من الأدب مع الله قبولها.

وكان يقول: إياك أن تعترض على العلماء في كبر عمامتهم فتقول إن هذا خروج عن السنة فإن هذا من الجهل بك، لأنهم في ذلك موافقون للعرف والعرف من جملة الشريعة، وقد استدل الجلال السيوطي رحمه الله على جواز كبر عمامة العلماء زيادة عن طول عمامة رسول الله ﷺ يقول تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾[1]، وقال: قد صار من عرف العلماء كبر العمامة ليتميزوا عن غيرهم من العامة فيسئلوا عن الشريعة وذكر أن كبر العمامة بهذا القصد لا يخرجهم عن السنة.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

وكان يقول: إياك أن تعترض على من تراه من العلماء الصالحين يكثر من الجماع فإن للعلماء والصالحين مشاهد فيه صحيحة، ومن كلام بعض العارفين: أكثر النوافل بركة الإكثار من النكاح لما فيه من الازدواج والإنتاج فيجمع العبد فيه بين المعقول والمحسوس، فلذلك كان اشتغال العبد بنوافل النكاح أتم وأقرب لتحصيل كل ما يرومه وكان محبوبا عند الله تعالى وهذه الطريق من أجل الطرق وأقربها على السالكين.

وكان يقول: إياك أن تستدل بوقوع مريد في هذا الزمان في النقائص على أن ذلك من نقص شيخهم عملا بقول بعضهم إذا أردت أن تعرف مقام شيخ لم تره فانظر إلى أصحابه فإنهم يدلون عليه اهـ.

فإن ذلك ليس بقاعدة كلية فقد يكون الشيخ من أكابر الأولياء ولم يقسم لمن اجتمع عليه شيء من أخلاق القوم كما أنه ليس كل من اجتمع برسول الله ﷺ حصلت له الهداية ولا كل من سمع كلام الواعظ اتعظ به.

فإياك أن تقول إذا رأيت ممن انتسب إلى شيخ من أهل عصرك سوء أدب، لو كان شيخ هذا متأدبا لظهر على مريده فتقع في غيبة الأشياخ بغير طريق شرعي فتمقت.

قال: وقد سمعت سيدي عليا المرصفي يقول: حكم تلقين الشيخ للمريد حكم النواة التي تغرس في أرض يابسة ينتظر ريها بالمطر، فمدادها واستمدادها وانفلاقها وخروج ورقها راجع إلى شدة شربها وخفته بحسب المربي، لا إلى غرس الشيخ فللشيخ البذور وللحق تعالى الإنبات.

وربما غرس شيخ غرسا في المريد ومات وكان خروج الثمرة

على يد شيخ آخر لضعف همة المريد وعدم توالي الذكر على قلبه ولسانه، فإن توالي الذكر بعد التلقين كتوالي المطر بعد غرس النواة فيسرع بالفتح والنتاج فعلم أنه لا يكفي المريد بعد التلقين أن يحضر مجلس الذكر صباحا ومساء فقط، كما عليه غالب المريدين في هذا الزمان.

فإن حكم ذلك الذكر كمن يقطر على النواة التي غرسها قطرة أول النهارة وقطرة آخره، مع تخلل الشمس والحر والريح بينهما، ومثل ذلك لا يروي أرض النواة بل ربما لم يصل إلى الأرض منه طراوة فيطول زمن فتحه وربما مات ولم يفتح عليه بشيء وربما لام هذا المريد الشيخ وقال: ولو في نفسه لم يحصل له بتلقينه فائدة.

وذلك قدح في أهل الطريق، فإن الشيخ إنما وظيفته غرس النواة وعلى المريد كثرة السقيا بالذكر والأعمال المرضية.

فإن أبطأ فتح المريد فذلك من ضعف همته لا من شيخه فحكم المريد المبادر للطاعة حكم القطن الذي يقدح فيه الزناد، فإن كان ناشفا حراقا علق فيه القبس وإلا طفئ كل قبس نزل فيه من شرر النار فافهم.

ثم إذا تلقن منه المريد ووقع منه معصية أو سوء أدب فالواجب عليه إعادة التلقين ليخرج الشيطان من مدينة جسده وقلبه، إذ التلقين يخرجه وسوء الأدب يدخله.

وهذا الأمر قد كثر في مريدي هذا الزمان وما منهم أحد يجدد التلقين على شيخه فعدموا النفع وصاروا أجسادا بلا أرواح كأنهم خشب مسندة.

وكان يقول: إياك وسوء الظن بمن تراه يسأل الناس وهو

قوي على الكسب فإن من الأولياء من يؤمر بسؤال النار، واحذر أن تعترض على من تراه يقبل من الخلق ما يعطونه من الصدقات فإن من الأولياء من يكون ستره قبوله من الناس ما يعطونه له ثم يخلط عليه من ماله ويعطيه سرا لمن يستحقه ويوهم الناس بأن ذلك كله من صدقات الناس، وهذا من أكبر أخلاق الرجال الذين أخلصوا في معاملة الله تعالى.

وكانت طريقة سيدي أبي بكر الحريري سؤال الناس للفقراء سفرا وحضرا قال مرة يا عبد الوهاب قم معي فخرجت معه إلى سوق أمير الجيوش فصار يأخذ من هذا نصفا ومن هذا عثمانيا ومن هذا درهما فما خرج من السوق إلا ومعه نحو أربعين نصفا فلقى شخصا معه طبق خبز فأعطاه ثمنه وصار يفرقه على الفقراء وهو ذاهب إلى نحو بين القصرين، فلما فرغ الخبز قال: نفعنا الفقراء من هؤلاء التجار على رغم أنفهم ثم صار يعطي هذا نصفا وهذا درهما إلى أن فرغوا.

وكان يقول: عليك بإقامة الأعذار لقضاة الزمان فيما يقع منهم في الأحكام، ولا تبادر إلى الحط على قاض إلا إذا لم تجد له محملا في الشرع، وقد أخبرني بعض القضاة الصادقين أن كثيرا ما يريد أن يفعل مع الأخصام الأمور الشرعية فتقوم له عدة موانع تمنعه من ذلك فأنا أسعى في نصرة الشريعة جهدي وطاقتي.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الحط على من نقل عنه بعض الحسدة غلطة تخالف النقل بل أتثبت في ذلك غاية التثبت، لا سيما أن أفضت تلك الغلطة إلى التكفير أو التعزير.

قال وهذا الأمر قل من يتثبت فيه في هذا الزمان بل يبادر أحدهم إلى الفتوى مع أنه لم يجتمع بصاحب الواقعة ولا ثبت ذلك الأمر عنده ببينة عادلة.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا يرفع صوته بذكر الله فاحملوه على أنه يفعل ذلك محبة في الله وطلبا لأحد يذكر الله بذكره وتنهيضا لهمم الإخوان لا لعلة أخرى من حظوظ النفوس فإن ذلك لا يجوز.

وإذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين احتجب عن مكروب ولم يخرج إليه فلا تحملوه على أنه فعل ذلك تكبرا أو استهانة بحقه فإن ذلك لا يجوز بل احملوه على أنه إنما تخلف عن الحضور لشدة اشتغاله بالله تعالى.

وربما حصلت الجمعية بقلبه عليه تعالى فمنعته عن الحركة وعن الالتفات لغيره تعالى بحكم الإرث للشارع ﷺ، فقد ورد أنه ﷺ كان يقول: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» وفي القرآن العظيم: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[1] الآية، فلم يقيد تعالى ذلك بمدة فشمل اليوم والجمعة والشهر.

وكان سيدي مدين وسيدي علي المرصفي لا يخرجان من خلوتهما إلا لصلاة العصر فقط، ولو أن أحدا جاءهما في غير ذلك الوقت لم يخرجا، ومثل هذين الشيخين لولا أنهما يعلمان أن لهما عذرا شرعيا لخرجا كل وقت دعيا فيه إلى الخروج والتسليم لهما ولمن تبعهما أسلم، وحملهما على محمل حسن اغنم.

قال: وكلامنا في الخروج لأصحاب الضرورات أما من لا ضرورة له كغالب من يزور الفقراء اليوم فلا ينبغي لفقير أن يخرج لأحدهم إلا أن علم منه حفظ اللسان في حالة مجالسته له إلى إن يقوم ويخرج، وقد صار ذلك في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر.

وإن شككت في قولي فاذكر للجالس أحدا من أعدائه بخيرا أو

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٥.

افتح له أخبار الولاة، تعرف صدق ما أقول، فلا يكاد مجلس يطول إلا ويقع أهله في غيبة، ومن هنا كان سيدي يوسف العجمي شيخ الطريقة الجنيدية بمصر يقول للنقيب إذا دق أحد باب الزاوية فلا تفتحوا له الباب إلا إذا كان معه فتوح للفقراء وإلا فهي زيارات فشارات.

فقيل له مرة: كيف هذا وأنتم قد خرجتم عن الدنيا فقال أعز ما عند الفقير وقته وأعز ما عند أبناء الدنيا دنياهم فإن بذلوا لنا أعز ما عندهم بذلنا لهم أعز ما عندنا.

وكان يقول عليك بحسن الظن في الطوائف المنتسبين إلى الفقراء عمومًا، كالأحمدية والبرهانية والرفاعية والقادرية والمطاوعة، ولا تحكم على أحد منهم بخروجه عن الشريعة المطهرة بحكم إلا بجماعة من أهل خرقته، فقد يكون الشخص على نعت استقبل به دون أهل خرقته.

بل احكم عليه إذا شاهدته يخالف السنة أو قامت عندك بينة عادلة بذلك فإن كل طائفة من هؤلاء الطوائف فيها غالبًا الجيد والرديء والحكم على جميع الطائفة بحكم واحد جور وتهور، ولم يزل الناس يستفتون عن طائفة المطاوعة ونحوهم فلا ينبغي للمفتي أن يخلص عبارته فيقول أن كان من ذكر يعتقد كذا وكذا فهو فاسق مثلاً أو مبتدع وذلك لأن فيهم الصالح والولي.

وذكر سيدي علي البدوي أنه دخل زاوية القادرية فرأى منهم أمورًا تخالف الشرع فأنكر عليهم كلهم، قال: فرفعت رأسي وإذا بشخص متربع في الهواء يقول لي تنكر على القادرية كلهم وأنا منهم[1].

---

(١) كان الإمام عبد الوهاب الشعراني يقول: من رأيتموه لا يعمل بالكتاب والسنة فلا تسمعوا له حتى لو طار في الهواء أو مشى على الماء (راجع كتاب: تنبيه المغترين) للإمام الشعراني، تحقيق وضبط، أ.د. أحمد السايح أستاذ العقيدة ومقارنة الأديان بجامعات الأزهر وقطر وأم القرى، والمستشار توفيق وهبة، رئيس المركز العربي للدراسات والبحوث، ط. مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م، وكشف العورات حرام شرعًا.

وذكر أيضا أنه أنكر على النواتية كلهم بساحل رشيد حين رآهم يكشفون عوراتهم، قال: وإذا رجل في الهواء يقول لي يا علي تنكر على النواتية كلهم وأنا منهم[(١)].

والعورة تختلف فارتعدت من هيبته وكدت أن أهلك، فاستغفرت الله وتبت عن الإنكار على الناس من طريق العموم.

قلت: يحتاج من يترك الإنكار بمثل ذلك إلى كشف يفرق به بينه وبين الولي والشيطان فربما كان ذلك المتربع في الهواء شيطانا فيحصل لذلك الذي ترك الإنكار التلبيس في دينه ويفوته الأجر المرتب على ذلك الإنكار.

ونظير ذلك ما حكاه الشيخ أو الحجاج الأقصري أن جماعة من الفقراء وردوا على معمل الحديد في طريق عند آبة، فجاء فقير يطلب من صاحب المسبك قطعة حديد يعملها حلقة لمنطقته، فقال صاحب المسبك: حتى يبرد الحديد فمد الفقير يده فأخذ من الحديد قطعة حمراء مثل النار.

فقال صاحب المسبك: جئت تظهر علينا كرامتك بقبضك بيدك على الحديد الذائب في البودقة، عندي عبد في دار المزر يدخل هذا المعمل ويخوض في النار، ويقلب هذه البوادق ويخرج ولا يصيبه شيء.

ثم نادى بأعلى صوته يا فلان فحضر عبد أسود، قال له: ادخل النار عدل البوادق فقال: حتى تعطيني درهما أشرب به مزرا فأعطاه درهما فدخل المسبك وجعل يخوض في النار إلى

---

(١) كان الإمام عبد الوهاب الشعراني يقول من رايتموه لا يعمل بالكتاب والسنة فلا تسمعوا له حتى لو طار في الهواء أو مشى على الماء (راجع كتاب: تنبيه المغترين) للإمام العشراني، تحقيق وضبط، أ.د. احمد السايح أستاذ العقيدة ومقارنة الأديان بجامعات الأزهر وقطر وأمر القرى، والمستشار توفيق وهبة، رئيس المركز العربي للدراسات والبحوث، ط. مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م، وكشف العورات حرام شرعا.

وسطه ويقلب تلك البوادق بيده ثم يقول هذه تريد الإصلاح وهذه كذا وهذا كذا ثم أنه يرجع خارجا فيقول له المعلم: بقى عليك كذا وكذا من البوادق فيرجع ثانيا ويخوض في النار ذاهبا وراجعا ونحن ننظر حتى فرغ ثم خرج والماء يقطر من جسده انتهى[1].

فيحتمل أن يكون ذلك العبد وليا لله تعالى إبراهيمي المقام والمزر لا يصل إلي فيه إلا عسلا أو سكرا وغير ذلك من الأمور المباحة وجلوسه في دار المزر تستر منه لنفسه ويحتمل أنه يوهم الناس من شربه ويحتمل أن يكون في جسده خاصية تمنع تأثير النار فيه إذ النوع الإنساني أشرف وأحوى للأسرار من غيره كالحجارة والطير.

وقد نقلوا إن حجر الياقوت وطير السمندل إذا رميا في النار لا تؤثر فيهما وإنه يعمل من وبر طير السمندل مناديل ظريفة، فإذا اتسخت رموها في النار فيحترق الوسخ ولا يحترق المنديل وتحصل له النظافة فإذا غسلوه بالصابون لم يخرج له وسخ، وإن طير السمندل إذا وجد النار عشش وباض وفرخ فيها، وإن النعامة تبتلع الجمر والقطع الحديد المحماة الحمر ولا يحصل لها أذى في جوفها والله أعلم.

وكان يقول: عليك بإقامة العذر باطنا لإخوانك إذا أخرجوا أخلاقهم الرديئة على بعضهم بعضا، لا سيما إن كان أحدهم لا قدم له في علم ولا أدب وإياك أن تبادر إلى عتاب أحد إذا خرج في سوء خلق عن الحد لأنه ربما كان ذلك منه مقابلة لما فعله معه خصمه إذ لا يقدر على عدم مقابلة خصمه بالإساءة إلا من كان

---

(١) هذه كلها روايات آحاد وليس لها دليل شرعي أو عقلي وقد تكون أعمالا سحرية او خدعة.

يعلم أن الله يراه حال خصامه وذلك خاص بأهل الكمال من الأولياء.

قال: وقد كان سيدي علي الخواص يقول اعذروا إخوانكم في عدم صبرهم على ما يحصل لهم من الأذى في هذا الزمان، فإن الأحوال قد فسدت ومراسم الأشياء قد تغيرت وتبدلت واكتفى غالب الناس بالأقوال عن الأعمال.

وعم البلاء كل شيء ظهر من الناس أخلاق الذئاب تارة وأخلاق الثعالب تارة وأخلاق الكلاب تارة، وأخلاق الخنازير تارة، وأخلاق السباع تارة، وأخلاق البهائم تارة، وأخلاق الشياطين تارة، وأخلاق الفسقة تارة، وأخلاق الظلمة تارة.

فلا يكاد العبد يرى منهم أخلاق كمل المؤمنين إلا في النادر ومن أنصف من العقلاء وجد أخلاق ما ذكرنا من الحيوانات تتوالى عليه نفسه ليلا ونهارا فيعذر الناس كما يعذر نفسه.

قال: وكان أخي الشيخ أفضل الدين الأزهري يقول من طلب من الناس في هذا الزمان المشي على سنن الاستقامة فقد رام المحال ما لم تحف العناية الربانية فحسبكم من إخوانكم في هذا الزمان التوحيد وسلامة القلب من الشك والنفاق وأن لا يأتوا بصور العبادات على حسب ما يطيقونه إقامة لشعائر الدين.

وكان يقول: إياك أن تعترض ولو بقلبك على من رأيته من الصالحين يتداوى بما يصفه له الطبيب المسلم فتقول: لو كان هذا من الصالحين ما تداوى فإن هذا من الجهل بك إذ ترك التداوي كالمقاومة للقهر الإلهي.

ثم إذا طال بالعبد المرض طلب الدواء ضرورة فكان من العقل أن يفعل العبد أولا ما يفعل آخرا، وفي القرآن العظيم: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ

ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ [1] فجميع ما يدعيه من القوة عرض لا ثبات له.

وقد سئل الحكيم الترمذي عن صفة الخلق فقال: ضعف ظاهر ودعوى عريضة، قال: ومن وصية أخي الشيخ أفضل الدين عليكم بالتداوي من سائر الأمراض فإن الله كما أمر العبد بالنظر في مصالح بنيته وما يقوم بها من الأغذية والأشربة وما يحصل من الغذاء والري عند استعماله ويدفع حر الطبيعة أو بردها وغير ذلك.

فينبغي أن يتفق بدنه وطبيعته في كل أسبوع بما يناسب ذلك الوقت من تمشية الطبيعة أو حبسها أو يقوى المعدة عند ضعفها وعجزها من هضم الطعام ولكل واحد من ذلك علامة يعرفها الحاذق من نفسه بلا واسطة.

ثم لا يخفى أن الله يخرج لعباده في كل فصل من البقول والفواكه ما يناسب أمراض ذلك الفصل التي تحصل فيه فينبغي للعبد أن يستعمل من كل ما يظهره الله من المأكولات في الفصول الأربعة استعمالا كافيا.

وأن يتفطن لما يخرج في الفصول من حيث القلة والكثرة فإن كان كثيرا فوق العادة فليعلم أن الداء المقابل له كثير فيكثر من أكله بنية الشفاء لا بنية شهوة النفس وذلك ليحصل له الشفاء بالأكل لأن الله ما أخرج ذلك في هذه الدار للشهوة وإنما أخرجه لنفع عبيده.

قال: وينبغي للعبد أن يستعمل في كل أسبوع منقوع العود السوس بيسير من الملح والشمار من غير استدعاء قيء فإن الحكماء الأول لم يحكموا بالاستدعاء إلا لما كانوا عليه من قوة الأبدان.

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

وذلك أمر قد أخذه الله من غالب أبدان الخلق لغلبة الشبهة في مطاعمهم إذا الطعام الحرام أو الشبهة يوهن البدن بخلاف الحلال على أن تعاطيهم الاستدعاء في زمانهم غير صواب في نفس الأمر بل موجب للضعف في البنية قطعا إذ الشيء لا يستقر له أثر إلا إذا مكث في محله المخصوص به.

فالحكمة الصحيحة استعمال ما ذكر والصبر عليه حتى تأخذ العروق منه حظها وينزل من محله المعتاد من قبل أو دبر فلا تصغ لقول طبيب يخالف ما قلناه فإنه جهل.

قال ولا بأس أن يستعمل المريض البقل أو الملح على الفطور غالب أيامه مع تقليل الغذاء لأن أصول الطب كلها ترجع إلى تقليل الغذاء إذ الداء إنما يغلب سلطانه بزيادة الغذاء لا سيما إن كان موافقا لزيادته بالطبع أو الخاصية والأكلة الواحدة كافية من الوقت إلى مثله مع تقليل الشرب أيضا.

فإن كثرة الشرب توجب في قوى الطبيعة امتلاء فضلا عن ضعيف الطبيعة فيتولد المرض ولا بأس بالحجامة والفصد في فصل الربيع سواء كان ثم حادث أم لم يكن وشرب الدواء المسهل أقطع في حق الأمزجة الضعيفة، ومن ثم من الأمزجة ما لا يحتاج صاحبه إلى دواء ولا غيره لصحة تركيبه أو لكثرة تعاطيه الأعمال الشاقة.

ولا بأس بترك اللحم والحلواء زمن الصيف والربيع واستعمال الحوامض ومشاكلها ولا بأس بالصوم فإنه بنية الشطر والتطوع نور وقوة وعبادة وبنية صحة المزاج للعبادة قوة وعبادة أيضا.

ولا أعلم من طريق الطب أولى منه كما ورد «جوعوا تصحوا»،

قال: وينبغي للعبد أن لا يأكل ما له رائحة كريهة أو ينفخ البطن ليلة الجمعة ويومها حفظا للمساجد من الريح الكريه إن كان ممن يعمرها وقياما بواجب أذكار تلك الليلة وذلك اليوم.

ولا بأس بتناول العبد يوم الجمعة بعض شهواته المباحة لأن ذلك يخرج فضلات الأهوية النفسانية ويقوي النفس على عمل العبادة وعلى عمل الحرف ولسان حال النفس يقول لصاحبها كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك اهـ ما نقله عن سيدي أفضل الدين رحمه الله.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من سمعته من الفقراء يقول إن الله أطلعني على ما لم يطلع عليه عزرائيل فإنه يقع للفقراء ذلك.

وقد وقع أن عزرائيل نزل لقبض روح ولد الشيخ محمد الشربيني فقال له الشيخ ارجع إلى ربك فإن الأمر نسخ وبقي من أجل ولدي ثلاثون عاما فكان الأمر كما قال الشيخ وعوفي ولده من تلك الضعفة وعاش ثلاثين عاما.

وبلغنا أن بعض الملوك قال لبعض الفقراء أخاطرك على ابنتي فإنها قد حضرها الموت فقال له اعطني ديتها وأنا أفديها بابنتي، فأعطاه ألف دينار، فقال لابنته: موتي عن ابنة الملك فماتت لوقتها وقامت ابنة الملك[1].

وكان يقول: إذا سمعتم أحدا من الفقراء يقول إن الله سخر لي الغيث فلا تعترضوا عليه فقد بلغنا عن الشيخ أحمد البستي أنه كان يأخذ خراج الأرض التي يدعو الله فيسقيها بالمطر.

---

(١) الموت والحياة بيد الله سبحانه وتعالى وعلمه، وما قيل ليس له دليل من عقل أو شرع، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٤٥].

ويقول إن الله سخر لي المطر فهو تحت إذني فأنكر عليه شخص ولم يدفع له خراجا، فقال الشيخ: ونحن نأمر المطر أن لا ينزل على أرضه فلم ينزل عليها في تلك السنة مطر.

وصار المطر ينزل على أرض جيرانه يمينا وشمالا ولم ينزل على حبه قطرة واحدة فحمل الخراج وأتى به إلى الشيخ، فقال الشيخ للمطر اسق أرض فلان فنزل عليها كأفواه القرب[١].

وكان يقول: هلموا لكل من سمعتموه من الفقراء يقول إن الله أطلعني على ما يقع في المستقبل[٢] من الزمان من رخاء وغلاء وعزل وولاية.

وقد كان الشيخ محمد الشربيني يتكلم على أقطار الأرض كأنه تربى فيها وأخبر بدخول السلطان بن عثمان مصر قبل أن يأخذها بسنتين.

ولما خرج الغوري إلى قتاله، قلت للشيخ عمر المجذوب: يا شيخ عمر هل يدخل السلطان بن عثمان مصر؟ قال: نعم، ويمر من هذا الموضع وهذا حافر فرسه فحفظنا عليه ذلك القول فدخل ابن عثمان مصر ووقع حافر فرسه في الموضع الذي عينه، وكذلك سلموا لكل من قال من الفقراء أنا أعرف الأرض التي أموت بها فإنه يقع لهم ذلك[٣].

ولما كان آخر حجة لأخي الشيخ أفضل الدين كان ضعيفا فقلت له في هذه الحالة تسافر، فقال: لترابي فإن طينتي مرغوها

---

(١) نزول المطر آية من آيات الله يحيي بها الأرض وينبت الحب، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [سورة لقمان: الآية ٣٤].

(٢) لا دليل على ذلك، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [سورة الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧].

(٣) قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [سورة لقمان: الآية ٣٤].

في تربة شهداء بدر فكان الأمر كما قال فمرض مرضا شديدا قبل بدر بيومين، ثم توفي ودفن ببدر.

وكان يقول: عليك بالتسليم وترك التكذيب لكل من ادعى ممكنا في العادة من سائر المقامات حتى القطبية فإن الولاية أمر باطني لا يطلع عليه إلا الله تعالى ثم صاحبه.

فتصديقنا لكل من لم يدع مقاما ممنوعا أولى لأنه إن كان صادقا فقد صدقناه وسلمنا، وإن كان كاذبا فإثم كذبه يرجع عليه لا علينا.

وكان يقول: عليك بالأدب مع قضاة زمانك كبارا وصغارا، وإياك أن تقول ببطلان أحكامهم في العقود وغيرها، بل انظر عقودهم صحيحة أدبا مع أئمة الدين القائلين بصحتها وأدبا مع السلطان الذي ولاهم وإحسانا للظن بهم.

ومن علم أن السلطان أتم نظرا منه ومن أمثاله لا ينكر عليه في تولية أحد أو عزله ولا يذمه أبدا من ورائه، وقد قال العلماء: لو ولى السلطان قاضيا فاسقا نفذ حكمه للضرورة، وقالوا أيضا من غلبت طاعاته على معاصيه فهو عدل.

وبلغنا: عن الإمام أبي حنيفة أنه قال كل مسلم عدل، وإن كان المتأخرون من أصحابه قد قيدوه ببعض شروط، ويكفي المتعنت في القضاة والشهود الاقتداء بهذا الإمام الأعظم، وإذا كان بعض القضاة يأخذ الرشوة فلا يجوز تعميم الحكم.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من المشايخ تغير على من زار من مريديه أحدا من أقرانه فاحملوه على أنه ما تغير عليه إلا لمصلحة كان اطلع عليه من طريق كشفه، على أن فتحه لا يكون على يد غيره، فأظهر له التكدر ليلازمه إلى وقت الفتح مصلحة له، وتقريبا للطريق عليه لا لعلة أخرى من حظوظ النفس.

قال: ومن كلام الشيخ محيي الدين بن العربي ما سامح شيخ مريده في الاجتماع بغيره إلا حصل له تردد في أي الشيخين أعلى من الآخر حتى يتتلمذ له، وإذا حصل ذلك له رفضه قلب الاثنين فلم ينتفع بأحد منهما، لأن شرط الانتفاع بشيخ جزم المريد بالتقيد في دائرته لا يخرج منها حتى يحصل له الكمال.

ثم إذا حصل فللشيخ عليه حكم الإفاضة من غير وقوف معه.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على شيخ يمتحن أصحابه، فتقول الامتحان ليس من شأن الفقراء، وقد وقع لسيدي يوسف العجمي أنه امتحن مريدا تفرس فيه الخير فلم ينفر منه، وكان الفقراء عندهم منه غيرة شديدة لما يرون من تقريب الشيخ له.

فأراد الشيخ أن يبين لهم مرتبته وأنه يستحق ذلك دونهم فأمره أن يذهب إلى الموضع الفلاني فيأتي بالمرأة التي فيه ويأتي صحبتها بجرة خمر.

فذهب ذلك المريد إلى ذلك الموضع فوجد المرأة والجرة فأتى بهما فدخل الشيخ بالمرأة البيت وأغلق بابه ساعة، فتغير الفقراء كلهم لذلك إلا ذلك الشاب، وكانت المرأة ابنة الشيخ والجرة خلا، فقال له الشيخ لم لا نفرت مني بما وقع كالغير.

فقال له: يا سيدي ما صحبتك على أنك معصوم وإنما صحبتك على أنك أعرف بطريق الله مني، فقال له: بارك الله فيك اهـ.

قلت: تغيرهم كان قصورا كبيرا فإن المرأة والجرة يقبلان التأويل.

ومن المعلوم: المشهور أن الأولياء يعطون قلب الأعيان فيأخذ

أحدهم الكأس من الخمر فلا يصل إلى فيه إلا عسلا أو ماء أو سكرا[1]، فيظن من لا علم له بأحوال الفقراء أن ذلك الفقير شرب خمرا، وهو معذور في ظنه وعلامة الصدق في ذلك عدم غيبة العقل، فإن ادعى فقير أنه ممن تقلب له الأعيان ثم حصل له غيبة عقل فهو كاذب يقام عليه الحد والله أعلم.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من تراه يسأل وهو قوي على الكسب فقد يكون سؤاله لغيره من المحاويج، قال: وقد كنت أعطي شخصا على هذه الصفة، وكان بعض الناس يتكدرون من ذلك، ويقولون لو أعطيت ذلك لأحد من المحتاجين لكان أفضل.

فتتبعت ذلك الرجل مرة من غير علمه فرأيته يفرق جميع ما يأخذه من الناس على العجائز والشيوخ المنقطعين بباب اللوق، ولا يأكل منه شيئا فحمدت الله على عدم سوء ظني به كما وقع لغيري.

وأخبرني سيدي علي الخواص أن جماعة من الأولياء يقيمون في جبل المقطم ويرسلون خادمهم إلى سائر أقطار الأرض، يأتيهم بالقوت الذي قسمه الله لهم وأودعه عند بعض عباده يستخرجه الخادم ممن هو عندهم بالإلحاح، فربما أنكر ذلك عليه من لم يعرف الحال.

قال الشيخ أفضل الدين: وقد رمتني المقادير مرة إلى سبعة أنفس منهم في مغارة فأشاروا إلي أن أجلس فجلست، فصاروا يقولون أبطأ فلان أبطأ فلان وأنا لا أعرف الخبر، ثم إنه دخل رجل فقالوا له ما أبطأك وعندنا هذا الضيف.

---

(١) هذه أمور لازال يتداولها العامة في الريف، وليس لديهم دليل صحة على ما يقولون.

فقال درت لكم الأرض كلها فلم أجد شيئا من الحلال اللائق بمقامكم إلا عند عجوز في مدينة مراكش بأرض المغرب ومد لهم قليلا من نخالة فقالوا لي تقدم فكل.

فقلت في نفسي وما أصنع بهذه النخالة وأنا لا أقدر على بلعها من خشونتها، فقال لي واحد منهم: هكذا وجدنا الحلال في هذا الوقت ثم مسح بيده على النخالة فصارت حلواء فأكلت معهم منها[1].

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من ينتسب إلى البدعة كطائفة المطاوعة ولا تنكر عليهم إلا إذا خالطتهم ورأيت منهم ما لا يوافق الشريعة ونهيتهم عنه فلم ينتهوا.

ومعلوم أن قلوب الخلق خزائن الله تعالى فربما أسكن الله بين هؤلاء المبتدعة أحدا من أوليائه ليحفظهم بوجوده من نزول البلاء عليهم لكون رحمته سبقت غضبه، فتحكم عليه بأنه منهم فتخطئ في حقه وربما أدى ذلك إلى العطب.

وكان يقول: إذا حضرتم درس أحد من الصالحين ولم تفهموا شيئا من كلامه فإياكم أن تقولوا ليس في كلام هذا فائدة فإن الملائكة والجن يحضرون دروس الصالحين.

فربما كان ذلك الصالح يرسل كلامه بحسب فهم أولئك الحاضرين من الملائكة والجن والأولياء فقط دون الحاضرين من الإنس القاصرين[2].

قال: وما رأيت في عصري على هذا القدم غير سيدي محمد البكري نفعنا الله ببركاته، فلا يكاد أحد من الحاضرين بمجلسه

---

(١) هذه أمور لازال يتداولها العامة في الريف، وليس لديهم دليل صحة على ما يقولون.

(٢) لو كان ذلك صحيحا لتكلم بلغة الحاضرين من الإنس، لأن الجن والملائكة يفهمون ما يقول، والعكس ليس بصحيح.

يتعقل شيئا من غالب كلامه المتعلق بأولئك الحاضرين من أهل الدوائر العلية من الملائكة وأكابر علماء الجن لكثرة حضورهم مجلسه.

فربما قال من لا معرفة له بما قلناه ليس في كلامه فائدة ولو أنه كشف له عما ذكرناه للزم الأدب[1].

وفي وصية أخي أفضل الدين: إذا تكلمتم في الطريق فلا ترسلوا الكلام بحسب فهم الحاضرين من الإنس فقط وبحسب رتبتهم، بل تكلموا بحسب الوقت والفتوح فإنه ما ثم مجلس إلا وفيه من يقبل التخلق بأخلاق الكمل من إنس وجن وملائكة سواء أعلمتم بهم أم لم تعلموا.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من المشايخ يضرب مريده بغير سبب ظاهر فلا تبادروا إلى الإنكار، فربما كان ذلك المريد قد تقدم منه أن حكم ذلك الشيخ في نفسه يؤدبه بما شاء كيف شاء.

وقد حكى صاحب الوحيد أن بعض الأولياء كان يتكلم في مناقب شيخ فنزل عن الكرسي فضرب فقيرا على رأسه ثلاث ضربات، فأنكر الحاضرون في المجلس عليه.

فقال لهم: قولوا له لم قلت في نفسك أنني أفضل من ذلك الشيخ الذي نحن في ذكر مناقبه، فقال الفقير قد وقع ذلك.

فقال الشيخ: والله لقد رأيته وقد أخرج رأسه من هذا الحائط، وقال لي انظر مريدك كيف يسيء الأدب علي، فما وسعني إلا تأديبه فقام الحاضرون كلهم واستغفروا.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من تراه من العلماء والصالحين يلبس الرفيع ويأكل الأطعمة الفاخرة فتقول

(١) لو كان الأمر كذلك فلماذا لا يعقد لهم مجلس مخصوص.

أن هذا قليل الورع فربما كان ذلك الصالح أو العالم من أصحاب الدوائر الكبرى في الولاية الذين حضرتهم حضرة الجمال، كسيدي علي وفا وسيدي مدين الزاهد وسيدي أبي الحسن البكري وولده سيدي محمد.

فمثل هؤلاء لا تقام عليهم الميزان التي تقام على غيرهم، لأن الله ربما يستخلص لهم الحلال من بين فرث الشبهات ودم الحرام لكرامتهم عليه سبحانه.

ومصداق ذلك حصول هذه الملابس والمآكل والمراكب التي بأيديهم من غير حصول ذل في وصولها إليهم، فلا تكلف عندهم في شيء منها.

وقد وقع أن الوزير المشهور بابن زنبور رأى سيدي علي وفا في باب زويلة فنظر إلى ملبسه ومركبه فرآه كالسلاطين، فقال في نفسه: ما ترك هؤلاء لنا من الأمور، فقال سيدي علي لغلامه: اذهب إلى الوزير فقل له في أذنه سرا تركوا لكم خزي الدنيا وعذاب الآخرة فنقم السلطان عليه.

وبعد أيام سلب نعمته فجاء واستغفر في حق سيدي علي وفا.

قال: وحكى لي العارف بالله تعالى الشيخ محمد الدنوشري قال لما مات شيخنا سيدي محمد الغمري لم يعجبنا أحد بعده نجتمع عليه فسألت بعض الفقراء، فقال: عليك بسيدي مدين، فلما دخلت مصر سألت عن زاويته.

فلما دخلت الزاوية قلت أين الشيخ فقالوا لي أنه يتوضأ في الرباط فدخلت عليه فوجدت رجلا بعمامة كبيرة وجبة عظيمة، ورأيت إبريقا وطشتا وعبدا حبشيا واقفا بالمنشفة فقلت أين سيدي مدين فأشار إلى العبد أنه هذا.

فقلت في نفسي: لاذا بذاك ولا عتب على الزمن، بتحريك المثناة من فوق لأن عهدي بشيخنا يلبس الجبة والعمامة الغليظة والتقشف الزائد وليس لي علم بأحوال الرجال.

فقال لي: اصلح البيت بسكون الفوقية فقلت الله أكبر فقال على نفسك الخبيثة تسافر من بلادك إلى هنا وتزن على الفقراء بميزان نفسك التي لم تسلم إلى الآن فقلت تبت إلى الله تعالى.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين كثير التردد إلى الملوك والأمراء والقضاة والأغنياء ويسألهم الدنيا ويطلب منهم الوظائف من تدريس وخطابة وإمامة ونحو ذلك، فإياك أن تعترض عليه كما يقع فيه القاصر في الفهم والإدراك، فيقول لو كان هذا وليا أو عاملا بعلمه ما تردد إلى هؤلاء الأمراء ولجلس في بيته أو زاويته واشتغل بعبادة ربه، ورحم الله الأولياء والعلماء الذين سلفوا ونحو ذلك من ألفاظ الجور.

ولو استبرأ هذا القائل لدينه لوقف وتبصر في أمر هؤلاء الأولياء والعلماء قبل أن ينتقد عليهم، فربما كان ترددهم لكشف ضرر أو خلاص مظلوم من سجن أو قضاء حاجة لأحد من عباد الله الذين لا يستطيعون توصيل حوائجهم إلى تلك الأمراء فيسألون في ذلك من يعتقد فيه من الأولياء والعلماء فيجب عليهم الدخول على هؤلاء الأمراء لمصالح العباد ويحرم عليهم الامتناع.

وربما كان طلب أحدهم الوظائف ليقوم فيها بالعدل ويتصرف في ذلك بالمعروف على الوجه الذي لا يهتدي لمعرفته غيره من الأمراء والعلماء وآحاد الفقهاء ثم لا يأكل من معلومها شيئا أو يأكل من سدر الرمق لا غير.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين يمزح ويضحك كثيرا فلا تحملوه على الغفلة فإن ذلك من سوء الظن به.

ومن وصية سيدي إبراهيم الدسوقي: إذا ضحك الفقير في وجه أحدكم فاحذروه ولا تخالطوه إلا بالأدب، فإن أهل الطريق قد يمزحون كما يمزح الناس وهم في ذلك مع الله لا مع الناس.

وربما فعلوا ذلك تسترا لهم وتخريبا لظاهرهم ليدفعوا بذلك من يستحق الطرد عنهم.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من تراه يأخذ من مال الولاة إلا بطريق شرعي، سواء كان طعاما أو ثيابا أم غير ذلك، بل تربص فربما كان يصرف ما يأخذ إلى المحاويج.

وكذلك لا تنكر عليه إذا رأيته يأكل من ذلك المال لا حتمال أنه ما أكله إلا عند الضرورة الشرعية، بخلاف ما إذا رأيناه يجمع مال الظلمة ولا يعطي أحدا من المحتاجين شيئا ويتوسع هو به في مأكله أو ملبسه أو مؤنة حجه.

فمثل هذا ينكر عليه قياما بواجب الشرع وشفقة على دينه من النقص ولحمه من النار ثم بعد إنكارنا عليه نتوجه إلى الله وندعوا له بالمغفرة والعفو وإرضاء الخصوم الذي جمع ذلك الظالم المال منهم ثم نشكر الله الذي عافانا من مثل ذلك.

قال: وقد كان سيدي علي الخواص يرد مال الولاة الذي يعطونه له ليفرقه على المحاويج، ويقول من جمعه فهو أولى بتفرقته، ثم قبله أواخر عمره وصار يقول ما ثم درهم من شبهة إلا وفي الوجود من يستحق الانتفاع به من أصحاب الضرورات كالذي طلع عليه الحب الفرنجي في الشتاء ولا يقدر على عمل حرفة ولا أحد يتفقده ولا عياله برغيف.

وكان سيدي محمد المنير يحمل لأهل مكة والمدينة ما يحتاجون إليه من الزاد والسكر والصابون والخيط والإبر لكل

واحد عنده نصيب، وكان سيدي محمد بن عراق ينكر عليه ذلك، ويقول: إن هذه الأشياء لا تخلو من الحرام والشبهات لأنه يأخذها من الأمراء ومن تجار مصر الذين لا يتورعون عن بيع الظلمة وأعوانهم فبلغه ذلك، فمضى إليه حافيا مكشوف الرأس فلما وصل خلوته قبل العتبة ووقف غاضا طرفه.

وقال سيدي محمد: أيدخل محمل المنير، فلم يرد عليه سيدي محمد بن عراق شيئا، فكرر عليه القول ثانيا وثالثا فلم يرد عليه.

فلما حكيت هذه لسيدي علي الخواص قال: وعزة ربي قتله فإنه ما ذهب لفقير قط على هذه الحالة إلا وقتله، فجاء الخبر بأنه مات[1] بعد خروج الحاج من المدينة الشريفة بأيام قليلة.

وكان يقول: إذا رأيتم شخصا يسعى على وظائف إخوانه في هذا الزمان فلا تبادروا إلى الإنكار عليه بل تربصوا وانظروا في أمره فربما كانت الوظيفة تحت يد من لا يستحقها شرعا، لفقد شروط الواقف عليه غنيا لا يحتاج إلى تلك الوظيفة ولا يقوم بها.

فأراد الساعي ستر حاله أو عياله وأكله الحلال وحماية أخيه من أكل الحرام بأخذه المعلوم وتركه المباشرة، وربما كان ذلك السعي واجبا والواجب لا يجوز لأحد الإنكار على فاعله.

وكان يقول: إذا ذهبتم إلى زيارة أحد فلم يأذن لكم في الدخول فلا ينبغي لكم أن تتكدروا منه فإن التكدر من مثل ذلك جهل بالقرآن فإنه تعالى قال: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ ﴾[2]، فشيء شهد الله بأنه أزكى للعبد فكيف يليق

---

(١) سبق أن قلنا أن الموت والحياة بيد الله وربما وقع ذلك مصادفة إن صح الخبر.
(٢) سورة النور: الآية ٢٨.

به أن يتكدر إذا حصل ذلك له وكذلك إذا سمعتموه يقول من وراء الباب قولوا ما هو هنا أوما هو فارغ أو اغلقوا دونه الباب ونحو ذلك فلا تبادروا إلى الإنكار فربما كان في حال قاهر يمنعه من لقاء الناس مطلقا.

وإن تكلف وتلقاهم لا يمكن أن ينصفهم في السلام والبشاشة على جري عادتهم قبل ذلك فيحصل لهم التكدير، والفقير كذلك ولا يسعه أن يحكي حاله لكل من ورد عليه.

وقد جاء مرة شخص إلى بعضهم وكان قد شرب دواء فقالوا أنه قد شرب دواء فلم يصغ إلى قولهم ودق الباب دقا عنيفا فشوش ذلك على الفقير تشويشا عظيما فإن دق الباب على الفقير كضربه بالسيف كما يعرف ذلك أهل الجمعية فغارت القدرة عليه فعمي بعد أيام.

وكان يقول: إذا سمعتم أحدا من الفقراء يقول لا موجود إلا الله، فإياكم أن تظنوا أنه ينفي وجود العالم، أو أنه يدعي الكمال فليس مراده ذلك، بل مراده أن الله قد أخذ بمجامع قلبه حتى حجب عن شهود الأكوان.

ومعلوم أن المريد من شدة تعشقه للطريق وترحل قلبه عن غير الله تعالى يصير قلبه محجوبا عن شهود الأكوان، كما يقع لصاحب المصيبة، يصير يدخل الدار ويخرج ولا يرى صاحبه الجالس على بابه من بكرة النهار، ويصير يقول ما رأينا فلانا اليوم فيقولون له أن له من بكرة النهار على بابك فيحلف أنه من شدة الهم ما رآه.

فهذا مثل من صار لا يشهد إلا الله تعالى لما تعلقت محبته بقلبه وإذا كان النساء اللاتي خرج عليهن السيد يوسف عليه

الصلاة والسلام ذهلن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن، ولم يشعرن بألم القطع فكيف بمن شهد جمال رب العالمين.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من العلماء والصالحين يمدح نفسه فإياكم أن تظنوا أنه يفعل ذلك رياء وفخرا حاشاهم من ذلك، وإنما بنوا أمرهم في ذلك على قواعد صحيحة وأغراض شرعية.

وقد ذكروا أن العارفين يصلون إلى مقام يجب عليهم فيه إظهار جميع نعم الله والتحدث بها، اعترافا بنعمته وشكرا له عز وجل، وأن أحدهم يرى نفسه كالآلة الفارغة التي يحركها المحرك على الفارغ، ويرى أيضا نفسه عبدا غارقا في فضل سيده ونعمته سداه ولحمته نعم، ولا يخفى أن من لم يصل إلى هذا المشهد ذوقا وتحققا فكتمان الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة في حقه واجب خوفا عليه من دخول الآفات.

وكان يقول: عليكم بتعظيم كل من رأيتم عليه شيئا من زي الفقراء من مرقعة أو غيرها ببادئ الرأي ولا ترسلوا إليه سوء الظن فتقولوا هذا زي قد قل الصادق فيه فإن ذلك لا يجوز، ولا تتوقفوا على معرفة مقامه في الطريق وانظروا إلى أبناء الدنيا كيف يعظمون من رأوه لابسا ثياب جند السلطان، ولا يتوقفون على كونه من جند السلطان.

وقد حكى عن الشيخ الكبير سيدي عبد الرحيم القنائي أن كلبا مر عليه وفي عنقه شيء مربوط من زي الفقراء فقام له إجلالا فقيل له في ذلك فقال: إني نظرت إلى زي الفقراء المربوط في عنقه وغبت عن شهود الكلب.

وكان يقول: إذا رأيتم أحدا من الصالحين يقبل عتبة باب

أمير فإياكم أن تسيئوا به الظن، فإن عند كل أمير غالبا أحدا من أصحاب التوبة، فتواضع ذلك الصالح إنما هو لذلك الذي في بيت ذلك الأمير.

وكذلك إذا رأيتم أحدا من المشايخ يقبل رجل أحد من العلماء وهو راكب بحضرة طلبته، فإياكم أن تظنوا أنه مفتعل معاذ الله أن يقع أحد من الصالحين في التفعل، إنما يتواضع أحدهم لإنسان كل التواضع لمصلحة ذلك الإنسان.

وقد كان الشيخ السالمابازى يحط هو وأصحابه على سيدي أحمد الرفاعي، فلقيه مرة ومعه أكابر أصحابه فأول ما رآهم سيدي أحمد نزل عن دابته وكشف رأسه ثم قبل يد السالمابازي ورجله وهو راكب، فتلقاه السالمابازي بكل قبيح.

وقال: أي أعور، أي دجال، أي مستحل حرام، أي مبدل القرآن، أي ملحد، حتى قال له الكلب ابن الكلب. وكل ذلك وسيدي أحمد يقبل يده ويقول: أي سيدي ارض بفضلك عني، وأنا خادمك وحلمك يسعني.

قال خادم سيدي أحمد: ثم إن سيدي أحمد قبل رجله وانصرفنا وكدنا أن نهلك من الغيظ مما فعله السالمابازي، فالتفت إلينا وقال: ما كان إلا الخير أخرج ما عنده من الغيظ ولو بقى عنده لربما هلك، وربما أثمنا نحن لكوننا كنا سببا له، فأرحناه مما كان في صدره من جهتنا اهـ.

فإياك يا أخي أن تحمل من تراه من الصالحين يقبل رجل أحد وهي في النعل على التفعل فتقع في إثم كبير.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على ما تراه من المشهورين بالصلاح يتلصص، وقد قلت مرة لشخص من الأولياء

وكان لصا ما دليلكم في السرقة المنافية لأحوال الصالحين فقال دليلنا قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[1]، فأنا أفدي إخواني بنفسي من أكل الحرام لأتحمل العقاب عنهم في الدارين وذلك لي بحكم الإرث لرسول الله ﷺ فأنا أولى بإخواني المسلمين من أنفسهم وأشفق عليهم منهم على أنفسهم.

وإني لأود أن يرزقني الله تعالى جميع ما جعله الله في الأرض حراما لأقوم أنا بوزره، وبما ينشأ منه من المعاصي دون إخواني المسلمين انتهى.

وذلك لما جعله الله تعالى في قلبه من الرحمة بعباد الله تعالى.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من سمعته من الصالحين أخبر عن شيء وظهر الأمر بخلاف ما أخبر، فقد يكون مطمح بصره ألواح المحو والإثبات، وهي ثلاثمائة وستون لوحا تقبل المحو، بخلاف اللوح المحفوظ، فإنه لا يقبل المحو أبدا كما قال تعالى: ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[2].

يعني عن المحو، ولو سألت ذلك الصالح حين تغير الأمر لأخبرك بتغييره فإنه صادق في الموضعين، وما تكلم إلا لظنه أنه اللوح المحفوظ فافهم.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الاعتراض على من سمعته من الصالحين يقول لأمير كبير في قومه ولو كان غير صالح، ادع لنا في حاجة كذا، فإنها متوقفة علينا فإن الصالحين يعلمون أن الله يستحي أن يرد دعاء هؤلاء بين قومهم ورعيتهم، كما وقع

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٢) سورة البروج: الآية ٢٢.

لفرعون حين طلب منه قومه أن يطلع لهم نيل مصر المتوقف، فسأل الله تعالى في ذلك فأجابه.

قال: وقد سألت بعض أكابر الدولة في أمور كانت متوقفة علي شهور فنزلت من عنده فوجدتها كلها قد قضيت.

وكان يقول: إياك والاعتراض على من رأيته من العلماء والصالحين يلبس أحسن ثيابه عند مجيء أحد من الأكابر إليه، أو عند ذهابه هو إليهم، فإنه في ذلك تابع للسنة، فقد كان النبي ﷺ إذا قدم عليه وفد يلبس أحسن ثيابه ويصلح طيات عمامته.

فعلم أن من لبس أحسن ثيابه أو أصلح طيات عمامته لغرض شرعي كأن يحترمه الداخل فينتفع به حتى لا يقع أحد في الإثم بسبب احتقاره إذا كان لابسا ثوبا دنسا، فلا حرج عليه.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار في رؤيا صالحة جاءت من رسول الله ﷺ إلى شخص فاسق، فربما كانت تلك الرؤيا من السياسة الدنيوية، لذلك الفاسق حتى يرجع عما يفعله من المعاصي.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من رأيته من العلماء والصالحين ذا عزة وسطوة، فربما كان حجابه عن الخلق ذلك وفي كلامهم لكل ولي سترا وأستار فمنهم من يكون ستره بظهور العزة والسطوة والقهر، على حسب ما يتجلى الحق تعالى لقلبه.

فيقول القاصر حاشا أن يكون هذا وليا وهو في هذه النفس، وغاب عنه أن الحق تعالى إذا تجلى لقلب عبد بصفة القهر والانتقام كان قهارا منتقما، أو بصفة الرحمة والشفقة كان رحيما مشفقا وهكذا.

ثم لا يصحب ذلك الولي أو ذلك العالم الذي ظهر بمظهر العزة والسطوة والانتقام من المريدين والطلبة إلا من محق الله نفسه وهواه.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من رأيته من العلماء والصالحين يزكي نفسه، فإن العلماء والعارفين لهم أن يزكوا أنفسهم بشرطه.

وقد سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول ما زكت الأكابر أنفسهم إلا لتقرب الطريق على أتباعهم لا غير.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الاعتراض على من رأيته من العلماء والصالحين سئل في شفاعة لمحبوس فلم يجب، فربما اطلع ذلك الصالح أو العالم من طريق كشفه أن مدة الحبس لم تفرغ، أو أن شفاعته غير مقبولة أو أن المحبوس لم يستحق الشفاعة.

وكان يقول: إياك والمبادرة إلى الإنكار على من رأيته من العلماء والصالحين احتجب عن مكروب، بل الواجب حمله على عذر كغلبة حال يشق معها مخالطة الخلق ونحو ذلك.

وقد وقع لبعضهم أنه مكث ثلاثة أيام لم يقدر يقف بين يدي الله تعالى في صلاة ولا غيرها، قال: فلولا من الله علي بالحجاب لتفسخ لحمي عن عظمي.

وقد فتحت لك يا أخي باب اختراع المحامل الحسنة للمسلمين في الأمور التي سبق إلى الذهن فيها سوء الظن فقس على ذلك.

ولما حث رحمه الله تعالى على لزوم حسن الظن بالمسلمين على إرادة العموم أخذ في الحث على لزوم حسن الظن بالأكابر وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم على إرادة الخصوص

إشعارا بأن إخراجهم من هذا العموم مطلوب شرعا وعرفا وأدبا وقد عبر عن حسن الظن بمعناه فقال:

وعليكم بلزوم أي اتخاذ الأجوبة الحسنة أو إكثار الأجوبة الحسنة عن أكابر حضرة الله تعالى من أنبياء وصحابة وتابعين ومجتهدين وعارفين.

أي في جميع أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم قياما بواجب حقهم وأدبا مع من هم في حضرته وهو الله تعالى.

ومن كلام سيدي علي الخواص من الواجب على كل مسلم الذب عن أعراض الصحابة فضلا عن الأنبياء والمرسلين، وعن أعراض المسلمين فضلا عن التابعين، لأن هؤلاء هم حملة الدين فمن نسبهم إلى نقص فكأنه يريد أن يهدم أركان الدين.

وقد لعن الله من غير حدود الأرض فكيف بمن يغير حدود دينه وأيضا فكما وجب علينا حمل آيات الصفات وأخبارها على محامل تليق بالبارئ جل وعلا.

فكذلك يجب الذب عن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام وحملة شريعتهم من المحدثين والفقهاء وغيرهم، وحمل أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم على محامل تليق بمقاماتهم.

وإذا كان من يخوض في حق الأولياء يخشى عليه سوء الخاتمة فكيف بمن يخوض في حق الأنبياء الذين هم سادات الأولياء اهـ.

فعلم أنه يجب على كل مؤمن أن يجيب عن أنبياء الله وورثتهم بأحسن الأجوبة، أعني التي تناسب أحوالهم الشريفة، ويليق بمقاماتهم العالية المنيفة، وأن لا يحمل شيئا من أحوالهم عليهم الصلاة والسلام على حسب ما يتبادر إلى فهمه، كما يقع فيه كثير من المجادلين وأين المقام من المقام وأين الحال من الحال

ثم لا يخفى أن الإجماع قد انعقد على أنه ليس لأحد من صدور العارفين المقربين فضلا عن غيرهم ذوق في مقام نبي من الأنبياء حتى يتكلم عليه، لأن الولاية لا تشترك مع شيء من أجزاء النبوة أبدا.

ومن كلام الشيخ محي الدين في شرح ترجمان الأشواق: ليس لنا ذوق في مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتى نتكلم عن أحوالهم، كما أنه ليس لأحدنا من مقام الإرث من مقاماتهم عليهم الصلاة والسلام إلا كما يرى من خيال النجم على وجه الماء.

وقد طلب أبو يزيد البسطامي من الله تعالى أن يدخله مقام نبي من الأنبياء فأعطاه الله مقدار الشعرة البيضاء من الثور الأسود فكاد أن يحترق فسأل الله الحجاب عن ذلك وقال لا طاقة لأحد من أمثالنا بدخول مقام أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن كلام سيدي علي الخواص: لا يجوز لأحد من الأولياء أن يتكلم على مقام نبي من الأنبياء إلا بحسب ما ورث من مقامه فقط، فإنه محال لولي أن يرث مقام نبي على الكمال، ومن لم يكن وارثا فالواجب عليه السكوت.

فعلم أنه ينبغي للمؤمن إذا سئل عن شيء يتعلق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن لا يبادر إلى الكلام بل يتربص ويسأل الله أن يلهمه شيئا يتكلم به مما يناسب كمالاتهم ويليق بمقاماتهم اهـ.

والمراد بحضرة الله تعالى حيث أطلقوها هي استشعار العبد أنه بين يدي الله، فمادام العبد مستشعرا ذلك فهو في حضرة الله، فإذا حجب عن هذا المشهد فقد خرج منها، هذا هو المراد بحضرة الله عند القوم، فليس مرادهم بها مكانا خاصا في السماء والأرض كما قد يتوهم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وإذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق مما أجابوا به عن أبينا السيد آدم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾(١) أن معنى عهدنا أي أعلمناه بنزوله الأرض وأنه يكون هو وبنوه خليفة فيها وبما نقدره على يديه من صورة ذنوب بنية السعداء.

وقوله: من قبل أي من قبل وقوع الواقعة، ومعنى فنسى أي ما أعلمناه به، وسبب ذلك النسيان قوة ما تجلى عليه من هيبة الله تعالى حال الواقعة حتى دكت جبال عزمه عليه الصلاة السلام.

ويحتمل أن يكون المراد بالنسيان هنا الخوف وإنما طرأ عليه الخوف لعلمه إطلاق المشيئة.

وقال: الشيخ العلامة عبد العزيز الديريني: جميع ما وقع من السيد آدم صلى الله عليه وسلم كان الحق سبحانه قد أعلمه بذلك، وقال قد سبق في علمي خلقك وإخراج ذرية من ظهرك، فيهم أنبياء ورسل وأولياء وصالحون ومؤمنون وكافرون وجاحدون، وأن أرسل رسولي جبريل إلى الرسل من أولادك بكتب وصحف وأحكام وتكاليف.

وكذلك سبق في علمي أن أخلق لذريتك وغيرهم من الجن دارين اسم إحداهما الجنة والأخرى جهنم.

فالجنة للأنبياء والرسل ولمن صدقهم.

وجهنم لكل ما خالف كتبي ورسلي ويكون شرفك بذلك.

وكذلك سبق في علمي أن أجري على يدك صورة ما يقع من

(١) سورة طه: الآية ١١٥.

بعض بنيك السعداء من المعاصي وأعلمك كيف يتخلصون منها إذا وقعوا فيها، ومن تاب منهم واستغفرني قبلته ولم ينقص مقامه عندي، ولابد من حجة أقيمها عليك في الظاهر وأنادي عليك بالعصيان والغواية تقبيحا في عين بنيك لئلا ينتهكوا محارمي فاثبت ولا تضجر، فإنك عندي مصطفى مرتضى.

ثم علمه تعالى الحرف والأسماء الكونية فلما أعلمه الحق تعالى بذلك صار مرتقبا لخروجه من الجنة ولهبوطه دار خلافته ليرتب الله الأسباب على مسبباتها كما سبق في علمه عز وجل، وليكون آله تنفذ فيها أحكام القضاء والقدر من غير أن ينقص له مقام بذلك.

ويستعمل تلك الأسماء والمسميات فيها إذ الحرف والأسماء الكونية لا يحتاج إليها في الجنة التي كان فيها إنما يحتاج إليها أهل الأرض.

ومما أجابوا به عنه أيضا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[1] أن المراد بذلك بنوه المؤمنون غير الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام قاله جماعة.

وقال سيدي علي الخواص: جميع ما وقع من أبينا السيد آدم ﷺ من مسمى المعصية كالطاعة لله عز وجل فإن الله كان عنه راضيا حال أكله من الشجرة كرضاه عنه حال كونه في الصلاة على حد سواء، ومن قال في أبيه غير ذلك فعليه الخروج من عهدته يوم القيامة.

وقال أيضا: كان معصية أبينا آدم ﷺ صورية لا حقيقية فإن الله قد ألهمه من الوجه الخاص الذي بينه وبينه[2].

---

(١) سورة طه: الآية ١٢١.

(٢) المعصية لم تكن صورية بل حقيقية لأن الله تعالى قال: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [سورة طه: الآية ١٢١].

وقال: إني أريد أن أبرز ما كان في مكنون علمي من ترتيب الأسباب على مسبباتها وأقدر على يدك صورة ما يقع من بنيك السعداء دون الأشقياء ولا أؤاخذك بذلك، وكانت الواقعة بمثابة جماعة قال لهم الملك إني أريد أن أحدث في ملكي أمرا وأرتب عليه أحكاما وأنهى خليفتي عن أمر في الظاهر وأريده منه في الباطن وأنزل كتبا وأرسل رسلا بأمر ونهي.

وأجعل لمن أطاعهم دارا تسمى الجنة ولمن عصاهم دارا تسمى جهنم، وأخرج من ظهر عبدي آدم ذرية يعمرون الأرض وأوجه لهم التكاليف بعد أن أقدر عليه الأكل من الشجرة، وبعد أن أنهاه عن القرب منها ظاهرا ثم أقيم عليه الحجة[1] ثم أخرجه من الجنة إلى دار أنزل منها في الدرجة تسمى الدنيا.

فمن طلب أن يكون موضع آدم فليتقدم، فما تجرأ أحد من الجماعة يتقدم لذلك غير السيد آدم ﷺ فإنه تقدم وقال: أنا لها أنا لها، طلبا لتنفيذ قضاء الله وقدره في عباده فكل من كان حاضرا هذا الاتفاق من المقربين، أو اطلع عليه من طريق كشفه لم يسم ذلك معصية حقيقة.

ومن كان غائبا عن هذا الاتفاق ولم يكشف له عنه جزم بأنه معصية ظاهرا وباطنا فعلم أن نداء الحق سبحانه على السيد آدم ﷺ إنما هو لأجل المحجوبين عن الاتفاق المذكور.

وأما المقربون فهم يعرفون الأمر على ما هو عليه، ويعلمون أن هذا النداء على السيد آدم ﷺ المراد به غيره، وقد يضرب الملك عبده المقرب عنده تخويفا لبعض العبيد الخارجين عن طاعة الملك برضا منه مع الملك واتفاق معه على ذلك، ليقول الخارجون

---

(١) كيف يكون الأمر ظاهريا وليس حقيقيا ويقيم الله عليه الحجة ويخرجه من الجنة؟ وهذا التأويل بعيد عن روح النص القرآني.

عن طاعة الملك إذا كان هذا فعله في عبده المقرب، فكيف بالعبد المطرود عن حضرته فيتحرك هؤلاء المارقون عن الطاعة لفعلها ويخافون منه إن تركوها، فكان السيد آدم ﷺ فاتحا لباب أحكام الدنيا إذ لابد من فاتح يفتح الباب.

ولو كنت أنا آدم وأطلعني الله على ما أطلعه عليه من عدم المؤاخذة بما وقع على يده من صورة ذنوب بنيه المؤمنين وإني إذا نزلت إلى الأرض أعود إلى الجنة بمائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي فضلا عن الأولياء والصالحين والمؤمنين لأكلت الشجرة بكمالها لما ترتب على أكلها من الخير والبركة.

وقال أيضا: من زعم أن هبوط السيد آدم والسيدة حواء عليهما الصلاة والسلام من الجنة كان عقوبة لهما فقد افترى إثما عظيما، إنما كان والله هبوطهما لزيادة الكرامة والتقريب وليخرج الله منهما الذرية التي تعمر الدارين كما سبق في علم الله تعالى، وليكون ثواب جميع بنيهما في صحيفتهما من الأنبياء والمرسلين وصالحي المؤمنين من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وأما أولادهما العصاة وغيرهم فليس عليهما من وزرهم شيء إذ الوزر لا يكون حقيقة إلا على من تسبب فيه بالقصد.

وقال الشيخ أفضل الدين الأزهري: أجمع أهل الكشف قاطبة على أن ترقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دائم فلا ينتقلون من حالة إلا لأعلى منها وأكمل، وإن هبوط السيد آدم ﷺ كان هبوط كرامة وشرف وترق في مقامه عليه الصلاة والسلام، لأن الأرض هي محل خلافته التي زاد شرفه بها.

ولم يجعل الحق تعالى له في الجنة التي كان فيها خلافة ولا

خـروج ولا ذريـة مـن أنبيـاء وغـيرهم فكـان فيـها كـالعقيم الـذي لا ولـد لـه، وقـد امـتن الله على الرسـل عليـهم الصـلاة والسـلام بـالأزواج والذريـة في قولـه تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[1]، وأمـا وصـف الحـق تعـالى السـيد يحيـى عليـه الصـلاة والسـلام بأنـه حصـور، فليـس ذلـك صفـة كمـال وإنمـا هـو حكايـة عـن الحالـة الـتي كـان عليـها.

ونقـل بعـض العلمـاء أنـه عليـه الصـلاة والسـلام تـزوج قبـل موتـه بـامرأة ولم يصبـها وذلـك ليكـون لـه أسـوة بإخوانـه المرسـلين، وإنمـا لم يصبـها لعلمـه عليـه الصـلاة والسـلام وحيـا أو إلهامـا أو كشـفا بأنـه ليـس في ظهره الكريـم ذريـة.

وأصحـاب النبـوة منـزهون عـن الشـهوات وعلـى ذلـك يكـون معنـى الحصـور هـو مـن لا يـأتي النسـاء لا مـن لا يـتزوج بـهن.

وقـال أيضـا: أجمـع أهـل الكشـف علـى أن نـداء الحـق تعـالى علـى نبيـه وصفيـه السـيد آدم ﷺ بالعصيـان والغوايـة المـراد بـه بنـوه المؤمنـين وغـير الأنبيـاء عليـهم الصـلاة والسـلام وإيضـاح ذلـك أن مقـر الأنبيـاء عليـهم الصـلاة والسـلام حضـرة الإحسـان الـتي يعبـد العبـد فيـها ربـه كأنـه يـراه.

وتلـك الحضـرة لا يصـح لأحـد أن يعصـى فيـها أبـدا فإنـه محـال أن يعصـى الله عبـد علـى الكشـف والشـهود بـأن الله يـراه فمـا وقـع أحـد في معصيـة إلا وهـو محجـوب عـن ربـه بحجب كثـيرة فافـهم.

وقـال: وقـد قـال الشـيخ الراسـخ محـي الديـن بـن العربـي في الفتوحـات المكيـة: أجمـع أهـل الكشـف علـى أن الأسـباب المانعـة للعبـد مـن الوقـوع في المعـاصي أربعـة لا خـامس لهـا:

---

(١) سورة الرعد، الآية ٣٨.

الأول: عدم تقدير المعصية على العبد.

والثاني: دوام الحياء من الله تعالى على الكشف والشهود بأن الله يراه.

والثالث: دوام الخوف من مواخذة الله تعالى إذا عصاه.

والرابع: الرجاء لمغفرة الله وثوابه إذا ترك ذلك الذنب فمادام يشهد ذلك لا يقع في معصية أبدا.

وهذه الأربعة مجموعة في كل نبي بلا شك وإلى ذلك الإشارة في أثر نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، يعني لو انتفى عنه الخوف من الله تعالى لمنعه من المعصية حياؤه ورجاؤه.

ومما أجابوا عنه أيضا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[(١)]، إن معنى ثم اجتباه ربه أي أظهر له أثر الاجتباء في أولاده والعناية بهم وأنهم أكمل في المقام من الملائكة، لأن الملائكة لا يذوقون للنهي طعما لعدم وقوعهم فيه، ففاتهم مقام محبة الله تعالى الذي في قوله أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

فلو أن أولاد السيد آدم ﷺ لم يأكلوا من شجرة النهي لكانوا ناقصين من الأجر والثواب والشكر لله سبحانه في امتثالهم الأمر واجتنابهم النهي.

ومعنى فتاب عليه أي قربه زيادة على قربه ومعنى هدى أي هداه إلى سبيل وده وحبه ويصح أن يكون المراد به غيره من بنيه فيكون معنى فتاب عليه وهدى أي تاب على بنيه السعداء من العصيان وهداهم إلى الإنابة والإيمان.

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٢.

فإن قلت: فهل الملائكة الذين وقع منهم الاعتراض من ملائكة السماء أم من ملائكة الأرض.

فالجواب: قال الشيخ محي الدين بن العربي يجب على كل مسلم أن يعتقد أن هبوط السيد آدم ﷺ وزوجه من الجنة لم يكن عقوبة لهما كما وقع لإبليس.

وإنما كان هبوطه كرامة وشرفا فإنه أهبط بالوعد السابق أن يكون هو وبنوه خليفة في الأرض أي يخلفون الجن والإنس الذين كانوا قبلهم في الأرض.

وكانوا ملائكة أرضيين وكانوا قد ذاقوا وقوع الفساد في الأرض وسفك بعضهم دماء بعض حين ركب الله فيهم الشهوة فقاسوا السيد آدم ﷺ على أنفسهم ولو أنهم كانوا من ملائكة السماء لم يقع منهم اعتراض لعدم ذوقهم الفساد ولعدم سفك بعضهم دماء بعض.

وكذلك قال سيدي علي الخواص ولفظه ما بلغنا قط في كتاب ولا سنة أن أحدا من أهل السماء يفسد فيها ويسفك دماء أخيه من الملائكة حاشاهم من ذلك، بخلاف الملائكة الأرضيين لقربهم من أحكام أهل الأرض.

ولذلك قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[1] فقاسوا السيد آدم ﷺ على أنفسهم.

فإن قلت: فهل الجنة التي كان فيها السيد آدم ﷺ وهبط منها إلى الأرض هي الجنة الكبرى المدخرة في علم الله تعالى أم لا؟

فالجواب: قال الشيخ محي الدين: ليس هي الجنة الكبرى وإنما هي جنة البرزخ التي فوق جبل الياقوت، وهي التي يفتح للمؤمن منها في قبره طاقة ينعم بها.

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

وكذلك القول في النار التي ترى في دار الدنيا في المنام أو من طريق الكشف هي نار البرزخ وهي التي رأى فيها رسول الله ﷺ المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعا، قال: وكل من مات من المؤمنين الموحدين المطيعين تعود روحه إلى جنة البرزخ ومن كان بالعكس عادت روحه إلى نار البرزخ.

فلا تزال الأرواح في هذين الموضعين حتى تنقضي الدنيا وينفى العدد ويتكامل المدد فيخرج الناس بنفخة البعث إلى الحساب.

ثم يدخلون الجنة الكبرى والنار الكبرى.

ولو أن الجنة التي يفتح للمؤمن منها طاق أو النار التي يفتح منها للكافر طاق هي الجنة الكبرى أو النار الكبرى لفاته الحشر والنشر وما بعدهما مما ورد.

وقال: ولما كان الغالب على جنة البرزخ مشابهتها للجنة الكبرى في الطهارة لم تكن محلا لإخراج القذر فيها من بول ودم ومخاط ونحو ذلك والله أعلم بالصواب.

فإن قلت: لو كانت معصية أبينا السيد آدم ﷺ صورية ما نسب الأمر إليه بقوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾[1] الآية، فعلم أولاده أدب العبيد مع سيدهم إذا خالفوا أمره بسبق إرادته.

وكان اعترافه عليه الصلاة والسلام في مقابلة قول إبليس للحق سبحانه وتعالى: كيف تؤاخذني بذنب قدرته علي قبل أن أخلق فسعدت ذرية السيد آدم باعترافه وشقى إبليس وجنوده بجداله بغير حق.

قال: وقد بلغنا أن الحق سبحانه أدحض حجته بقوله له

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

متى علمت أني قدرت عليك الإباءة عن السجود وقبل وقوعك في الإباءة أو بعدها، قال: بعدها فقال تعالى بذلك آخذتك.

فإن قلت: قد نقل الكسائي أنه عليه الصلاة والسلام بكى حتى صار من بكائه بركة عظيمة مكثت الوحوش والطير تشرب منها مدة ثمانين سنة ولو أن المعصية كانت صورية لم يكن ذلك.

فالجواب: يحتمل أن يكون ذلك البكاء صوريا ويحتمل أن يكون حقيقيا وحمله عن بنيه فكان من عزمه وشفقته على بنيه أن تحمل عنهم ذلك البكاء الكثير الذي لو وقع بعضه لأحد منهم لذهب بصره، ويحتمل أن يكون شفاعة فيهم فجزاه الله خيرا عن بنيه.

فإن قلت: قد قيل أنه ﷺ لما أكل من الشجرة اسود جسده ولو أن المعصية كانت صورية لم يكن ذلك.

فالجواب: قال الشيخ محيى الدين بن العربي: أن ذلك السواد كان صوريا أو حقيقيا ويكون علامة على سيادته وفتوته على بنيه أن تحمل عنهم ظلمة معاصيهم، ثم أن ذلك السواد زال عن جسده عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك بمثابة نزع من خلع عليه الملك خلعة السيادة بعد أن طاف بها على الناس حتى علموا بها كلهم.

وكذلك تطاير الحلل وسقوط التاج كان صوريا لا حقيقيا لينزجر بنوه عن الوقوع في معاصي ربهم عز وجل.

ومما أجابوا به عن السيد يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى في حقه ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[1] أن المراد همت به لتقهره على فعل ما تريد منه

(١) سورة يوسف، الآية ٢٤.

منه عليه الصلاة والسلام، وهم بها ليقهرها بالدفع عنه بشدة وعنف والبرهان الذي رأى هو نداء الحق تعالى له في سره بأن قال له: ادفعها برفق ولطف فإنها أمة ضعيفة لا تطيق قوة عزمك وشدة بطشك.

فهناك تلطف بها عليه الصلاة والسلام فلولا ذلك البرهان لزقها بيقين، فعلم أن الهم منهما في الصورة واحد وفي القصد مختلف.

وقد كان الليث بن سعد يقول: أنا أعرف رجلا ما هم بمعصية قط، وكان سليمان الدبيلي يقول لي منذ خمسين سنة ما خطر لي خاطر مكروه فضلا عن الحرام فإذا كان هذا يقع لأصحاب الولاية فكيف بأصحاب النبوة.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في قوله: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[1] أن سؤاله ذلك ومزاحمته عليه كان عليه واجبا وذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مكلفون بمراعاة مصالح الحق، فلما نظر الصديق ﷺ أن غيره لا يقوم بواجب الحق ولا يقدر على سياسة العباد في ذلك الوقت قال: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾[2].

لأنه مكلف بذلك ومعلوم أن ترك الواجب معصية والسعي فيه قربة ويحتمل أنه لم يقل ذلك حتى كشف له أنه يلي ذلك الأمر فعلم أنه لا يجوز حمله على محبة الدنيا ومناصبها على الوجه المذموم.

وقوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[3]

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٥.
(٢) سورة يوسف: الآية ٥٥.
(٣) سورة يوسف: الآية ٥٥.

كان عليه واجبا، إما من باب التحدث بالنعمة والشكر عليها، وإما من باب المدح الواجب وهو الذي تترتب عليه مصلحة شرعية.

وفي كلام بعضهم نهاية كل عارف ترجع إلى صورة بدايته، ولكن على غير الوجه الذي يشهده المبتدئ.

مثاله: أن المبتدئ يجب عليه أن يترك كل شيء يشغله عن الله تعالى، فإذا انتهى سلوكه على مصطلح القوم فهناك لا يصير شيء يشغله عن الله في الدارين، لأنه حينئذ يجد الحق تعالى مع كل شيء أمر بتركه في حال بدايته حين كان ضعيف الحال.

فمثل هذا يمسك الدنيا بحذافيرها ويتصرف فيها تصرف حكيم عليم، ويزاحم على الرئاسة ويشاحح الناس في الشيء اليسير، ويؤاخذ الناس بكل شيء فعلوه من الأذى وتصير صورته صورة أبناء الدنيا المحبين لها، وقصده مختلف وكماله في ذلك، ومتى خالف ذلك نقص كماله، فإن أمسك الدنيا كان قصده بإمساكها كف نفسه عن سؤال الناس وتحمل منتهم وإنفاقها في مرضاة الله تعالى في الوقت المحتاج إلى إنفاقها والفوز بلذة خطابه تعالى الذي لا يكون إلا لمن معه مال.

وإن زاحم على الرياسة كان قصده بالمزاحمة التخلق بها من حيث كونها من أخلاق الله تعالى، وليقوم بين الناس بالعدل فيعطي كل ذي حق حقه، ولو أنه لم يكن عنده رئاسة ما امتثل أحد كلامه، ولا قدر على تخليص الناس من بعضهم بعضا.

وإن شاحح الناس على الشيء اليسير كان قصده تخليصهم من تحمل منته وأن آخذ أحدا بأذيته له كان قصده الشفقة عليه والغيرة على ذاته من حيث كونها أمانة الله عنده أمنه عليها وأمره بكف الأذى عنها.

وإيضاح ذلك أن العبد إذا تحقق بمعرفة الله كان مشهده السر القائم بالذوات لا الذوات ولم يصر يرى شيئا غير ذلك السر حتى يشتغل به عن ربه انتهى.

ومن هنا قال السيد يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾[1]، وأيضا فإن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكمل ورثتهم، أنهم لا يعتنون بشيء إلا أن رأوا فيه وجها للحق سبحانه وتعالى دون نفوسهم لعصمة الأنبياء عن الحظوظ النفسانية.

ومما أجابوا به عن السيد موسى ﷺ فيما نقل عنه أنه قال: يا رب احبس عني ألسنة عبادك، فقال له الحق سبحانه: يا موسى هذا شيء ما جعلته لنفسي، قد قالوا فيما قالوا أنه عليه الصلاة والسلام ما سأل حبس ألسنة الناس عنه لغرض نفسي حاشاه من ذلك، وإنما سأل ذلك رحمة منه بقومه وخوفا عليهم فإن تسلط الناس في عرض الأنبياء كفر.

ونظير ذلك قول أخيه السيد هارون عليه الصلاة والسلام له: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾[2] قصد بذلك عدم وقوع قومه في الكفر بسبب شماتتهم به ﷺ.

ومما أجابوا به عن السيد داود ﷺ في خطيئته المذكورة في حديث «كانت خطيئة داود النظر» أن المراد بالنظر رفع بصره عليه الصلاة والسلام بغير حضور مع الله تعالى فأخذه الله على ذلك.

قال سيدي علي الخواص: وهذا هو اللائق، لأن الأنبياء

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

عليهم الصلاة والسلام معصومون من كل الرذائل، ولم يبلغنا في حديث صحيح ولا ضعيف أن المراد بالنظر نظره إلى امرأة أوريا لما سافر في بعض الغزوات كما حكاه بعض المفسرين.

وإنما جاء ذلك في بعض نسخ الزبور التي حرفتها اليهود وقصدوا بذلك إيذاء السيد داود عليه الصلاة والسلام، وكانوا قد عادوه ولما تلا عليهم صفة نبينا ﷺ وأن كتابه ينزل ناسخا للكتب التي قبله.

قال: وقد وقع لبعضهم أنه رفع بصره مرة إلى السماء فحصل له في قلبه قسوة، فشكا ذلك لشيخه فقال: لعلك نظرت إليها على غير وجه الاعتبار والحضور، فإن الله إذا اعتنى بعبد آخذه بكل حركة لم تقع عن حضور مع الله تعالى، إذا كان الأولياء يؤاخذون بذلك فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومما أجابوا به عن السيد أيوب ﷺ في قوله: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ ﴾[1] أن قوله هذا كمال في حقه ﷺ لأن النبي كلما ترقى في مراتب الكمال والقرب ضعفت نفسه حتى يصير يتألم من قرصة البرغوث ويعجز عن حمل ثوبه.

ولأن أعلى أوصاف العبودية إظهار الضعف والعجز وفي الشكوى ذلك، وشدة الصبر والتجلد إنما هو من قوة النفس وكبرها ومقاومتها للقهر الإلهي والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا بمحل لذلك.

وقد ذم الله قوما بقوله: ﴿ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1] فعلم أن الشكوى كمال في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكمل ورثتهم، فإن العبد إذا كمل ورق حجابه وماتت نفسه مالت إلى العجز وألقت السلاح.

ومما أجابوا به عنه أيضا عليه الصلاة والسلام في حثيه الذهب في ثوبه حين أمطرته السماء، أنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك إظهار الفاقة إلى فضل ربه تعالى.

وكمال العبد إنما هو بإظهار ذلك فلو أنه عليه الصلاة والسلام ما حثى الذهب في ثوبه وأخذ منه قليلا كان ذلك منه نقصا في مقامه عليه الصلاة والسلام.

قلت: ويصح أن يكون حثيه الذهب إنما فعله للتبرك به لكونه قريب عهد بتكوين ربه كما ورد عن نبينا ﷺ في المطر حين اغتسل منه، وقال أنه حديث عهد بربه.

وأما حمله عليه الصلاة والسلام على إنه إنما حثى الذهب في ثوبه محبة في ذات الدنيا فذلك لا يجوز في حق الأنبياء والله أعلم.

ومما أجابوا به عن السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾[2] أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن مراده أنه أحب الخيل حين عرضت عليه بالعشى لذاتها، وإنما هو لكونها هدية من ربه، ومن آثار صنعته عز وجل وكانت على خلاف طبع الخيل، ولذلك أحب مشاهدتها فلما توارت بالحجاب عنه عليه الصلاة والسلام وكان قد نسى أن يتبرك بها على عادة الأكابر مع نعمة سيدهم، لأن تعظيم النعمة من تعظيم المنعم.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧٦.
(٢) سورة ص: الآيتان ٣٢، ٣٣.

قال ردوها علي، فلما ردوها عليه ﷺ طفق يمسح سوقها وأعناقها بيده تبركا بخير ربه عز وجل، هذا هو اللائق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن الكامل من الأولياء لا يشغله عن الله شيء في الكونين، فكيف أشغلت الخيل نبيا رسولا هذا أبعد من البعيد وغير مناسب اهـ.

جواب القوم وهو قوي من حيث الاستدلال، فإن الخيل المذكورة في الآية والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر، وأيضا فإن الأفلاك والكواكب بيد الله فكان يجب أن يقول ردها فإن لفظ الجمع لا يليق بالإلوهية، وإنما يليق بها لفظ الأفراد ولا التفات إلى من يقول إنما ذكر لفظ الجمع تعظيما لأنه لفظ لا يشعر بالتعظيم في جانب الألوهية ولأن القول بعود الضمير إلى الشمس ينبني عليه نقائص في حق السيد سليمان عليه الصلاة والسلام:

أحدها: ترك صلاة العصر حتى خرج وقتها.

الثاني: استيلاء الاشتغال بحجاب الدنيا.

الثالث: مخاطبة رب العالمين بمخاطبة ذميمة، وهي قوله ردوها بلفظ الجمع.

الرابع: عدم الصدق في قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ ﴾[1] فإنه عليه الصلاة والسلام سماها خيرا فلو كانت أشغلته عن صلاة العصر ما سماها خيرا والله أعلم.

ومما أجابوا به عنه أيضا عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿ وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ ﴾[2] أنه عليه الصلاة والسلام ما قال ذلك حتى كشف له أن تسخير الريح والشياطين لا يكون لغيره.

(١) سورة ص: الآية ٣٢.
(٢) سورة ص: الآية ٣٥.

ومعلوم أن الملك لا يكون مذموما إلا في حق من يحجب به عن ربه أو يطغى به، وأما من يزيد تواضعه ويكثر شكره كلما اتسعت الدنيا عليه فالملك والمال في حقه محمود.

قال بعض العارفين: وقال سيدي علي الخواص رحمه الله: سبب سؤال السيد سليمان عليه الصلاة والسلام الملك إنما هو إظهار للفاقة إلى ربه، كأنه يقول أنا محتاج إليك يا رب كما وقع للسيد موسى عليه الصلاة والسلام والغيد، كلما أظهر فاقته إلى سيده علا مقامه وازداد منه تقربا فما ازداد بسؤاله الملك إلا فقرا وحاجة.

وذلك مطلوب من الأكابر، وإلا فمحال أن يطلب نبي ما يحجبه عن ربه وينقص به مقامه فإن ذلك سفه يجب تنزيه الأنبياء عنه.

وقال أيضا: إنما طلب السيد سليمان عليه الصلاة والسلام الملك ليعترف لله بنعمه الكثيرة، ويزداد شكرا لا طلبا للعلو والتمييز على الغير، حاشاه ﷺ من ذلك.

قلت: وفي كلام سيدي علي وفا من ادعى له ملكا دون سيده فقد خان وافترى وكان عليه فتنة، ومن اعترف بأن ما في يده لسيده جعله عاملا فيه لا يستكثر ما في يده إلا جاهل.

وتأمل قوله ﷺ: «أعطيت مفاتيح خزائن الأرض» فإنه يعلمك أن العبد كلما كثر ما في يده كثر شكره وازداد فاقة فكثر فضل ربه عليه.

وأما قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] فالضمير عائد إلى الرزق أي ولو بسط الله الرزق لعباد

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٧.

لعباد الرزق لبغوا، وأما عباد الله فلا يبغون إذا بسط لهم الرزق، فافهم تسلم والله أعلم.

وقال الشيخ أفضل الدين: كلام السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في غاية الأدب والصدق، لأنه نكر الملك فلم يخص شيئا في طلبه، وقال: ﴿ لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ ﴾[1] أي لأن ما يعطيه الله للعبد من الملك ما هو عين ما يعطيه لعبد آخر، إذ لابد فيه من زيادة ونقص في كبر الجثة وصغرها، وطول عمر ذلك وقصره، حتى لو سقطت ورقة من شجرة أو شعرة من رأس مملوك له خرج عن كونه مثله.

لأن المثلية في الوجود منقولة غير معقولة، إذ لو كانت معقولة ما تميز شيء في الوجود عن شيء ولكانت عين زيد هي عين عمرو فافهم.

ومما أجابوا به عن نبينا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِى فِى نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾[2] إن من أول الآية إلى ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ خطاب لزيد من رسول الله ﷺ حكاه الله عنه، ومن أول ﴿ وَتُخۡفِى فِى نَفۡسِكَ ﴾ إلى آخر الآية خطاب من الله لرسول الله ﷺ في سياق المدح لا في سياق العتب كما توهمه كثير.

ومعنى وتخفي ما في نفسك أي ما أطلعناك عليه من تزوجك لزينب زوج مولاك زيد بن حارثة.

والذي كان يحمله على إخفاء ذلك علمه ﷺ بأن الأجل الذي لها مع زيد وسبق به العلم الإلهي لم تنقض مدته.

---

(١) سورة ص: الآية ٣٥.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

وقول بعضهم ليست المعاتبة على الإخفاء وحده فإنه حسن، بل على الإخفاء مخافة مقالة الناس وإظهار ما ينبغي إضماره لا ينبغي أن يقال في حق المعصومين، وليست الآية في سياق العتب بل في سياق المدح، إذ معناه الاستحياء، أي تستحي من الناس أن تقول زينب زوج مولاي زيد هي زوجي مع اطلاعك على إنها زوجك وإن جعلناه على ظاهره فهو كفرض المحال مثل قوله تعالى: ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾[1].

فكما فرض الله المحال في هذه الآية كذلك في تلك الآية، إذ لا يصح أن نبينا يخشى أحدا دون الله تعالى، وإنما الآية على سبيل الفرض والتقدير وليس في آية﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾[2] دليل على أن النبي ﷺ يخشى الناس ولا يخشى الله، بل هو إخبار عن إن الله تعالى هو أحق أن يخشى وهو كذلك.

قلت: وهذا الجواب ينبغي القطع به لأنه هو اللائق بمقام النبوة.

وأما ما حكاه بعض المفسرين من أن سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ ذهب مرة إلى بيت زيد فناداه فخرجت زينب فرآها النبي ﷺ فأعجبته، فوقع في قلبه الشريف حبها وأحب فراق زيد لها، وأنه قال عند ذلك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

وأن زيدا لما جاء له ﷺ يشكوها له ويستشيره في طلاقها وفي نفس زيد كراهتها أمره بإمساكها، وأخفى في نفسه محبة طلاق زيد لها حين استشاره في طلاقها، فعاتبه الله على ذلك في هذا الآية، فإنه منكر من القول وزور، ينزه جانب النبوة عنه لما فيه من النقائص التي لا تقع لأدنى الأولياء.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٤.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

قال القشيري: وهذا إقدام عظيم من قائله واقتحام منه كبير في جانب النبوة يبعد عنه من فيه رائحة أدب، لما فيه من الحسد والنظر المحرم والميل النفساني واستحكام الشهوة.

وكيف يقال رآها فأعجبته فوقع في قلبه حبها وهي ابنة عمته أميمة ولم يزل يراها منذ ولدت، وهو الذي زوجها لزيد، وإنما جعل الله تعالى طلاق زيد لها وتزويج نبيه بها ليعلم أن الحكم في الأمور كلها لله وحده، ولإزالة حرمة التبني وإبطال سنته والله أعلم.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[1] أن الله ما خاطبه بهذا الخطاب إلا ليقرر بذلك شرعه فيكون عاما بين أمته إلى أن تقوم الساعة، وإلا فهو تعالى قد أعطاه القوة على النفس والهوى وعصمه منهما فلا يضراه ويحوجاه إلى المجاهدة.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ إلى قوله ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[4].

وقوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[5]، وقوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

(١) سورة الحجر: الآية ٩٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٥.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٥٢.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.

﴿ ﴾(1)، وقوله: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(2)، وقولـه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾(3)، وقولـه: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ إلى قولـه: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾(4)، وقولـه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(5).

وقولـه: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ إلى قولـه: ﴿ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾(6)، وقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾(7)، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾(8)، وقوله: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾(9)، وقولـه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(10)، وقولـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾(11) الآيات.

وقوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(12)، وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾(13)، وقولـه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ

---

(1) سورة يونس: الآيتان: ٩٥، ٩٦.
(2) سورة الحجر: الآية ٩٤.
(3) سورة الحجر: الآية ٩٨.
(4) سورة الكهف: الآية ٢٨.
(5) سورة طه: الآيتان ١٣١، ١٣٢.
(6) سورة القصص: الآية ٨٧.
(7) سورة الروم: الآية ٣٠.
(8) سورة الروم: الآية ٤٣.
(9) سورة الروم: الآية ٥٠.
(10) سورة الروم: الآية ٦٠.
(11) سورة الأحزاب: الآية ١.
(12) سورة الزمر: الآيتان ٦٥، ٦٦.
(13) سورة غافر: الآية ٥٥.

﴿ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات.

إن الخطاب له ﷺ والمراد غيره نظير قوله تعالى للسيد داود عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[2] إذ الأنبياء ليسوا بمحل لوقوع المخالفات ومن كان كذلك فلا يحتاج في ترك المخالفات إلى النهي، وإنما ذلك النهي لغيرهم على لسانهم وإنما لم يقع التصريح بالخطاب لذلك الغير لوجهين:

أحدهما: أنه لا يقوى على تحمل صولة الخطاب الإلهي بخلاف الأنبياء فإن الله قد أعطاهم القوة على تحمل صولة خطابه مما لو تحمله غيرهم لهلك وذاب.

الثاني: أنه لما سبق في علم الله إعراض العصاة عن أوامره كذلك أعرض الله تعالى عنهم بالخطاب وخاطبهم في غيرهم بغضا لهم ومقابلة للإعراض بالإعراض.

قلت: يؤيد الأول ما قاله أهل الكشف من أن الأمر الإلهي إذا نزل من الأفلاك السماوية يمكث نازلا ثلاث سنين فلا يصل إلى الأرض إلا بعد انسحاق صولته في السموات وما بينهن، ولولا ذلك ما طاق أحد حمله لشدة صولة الخطاب الإلهي والله أعلم.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[3] أن المراد بذنبه ﷺ في هذه الآية ما لزم من رسالته من تعذيب ما خالفه من الكفار والمسلمين وأضيف ذلك إليه لوجهين:

أحدهما أنه أضيف إليه من حيث تشريعه له، إذ لولا

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان ١٨، ١٩.

(٢) سورة ص: الآية ٢٦.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢.

تشريعه الحرام ما عذب الله تعالى عليه منهم أحدا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[1].

ثانيهما: أنه أضيف إليه من حيث عده ذلك ذنبا فإن من شأن الأكابر أنهم يؤاخذون نفوسهم بما كانوا سببا فيه ويعدونه ذنبا وإن كانوا لم يقصدوه، فلذلك سكن الله قلب نبيه ﷺ وبشره على طريق اليقين بأنه مغفور له غير مؤاخذ بلازم رسالته، إذ لازم المذهب ليس بمذهب عند جمهور العلماء.

كما أن الله لا يرضى عن إبليس بلازم وسوسته للخلق بالمعاصي، وليس قصد أحد من الداعين إشقاء أحد من قومه، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصده.

والمراد بمقدم الذنب وبمؤخره مؤاخذة قومه بسبب رسالته حال حياته وبعد مماته، قال الإمام سهل بن عبد الله التستري: وهو جواب حسن، والذي يقضي به العقل إنه اللائق بمقام المعصوم الأكبر ﷺ.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في أمره حسان بن ثابت أن يجيب الكفار، أنه ﷺ ما أمره بذلك إلا لغرض شرعي، لا إطلاع لأمثالنا عليه، يرجح في الثواب والأفضلية على السكوت، وقال بعضهم: إنما أمره ﷺ بذلك مبادرة إلى نصرة الدين وخوفا من تزلزل من كان أسلم قريبا من الصحابة، لا تشفيا للنفس فإنه معصوم من مثل ذلك بالإجماع.

فلو قام عليه أهل المشرق والمغرب بالأذى لاحتملهم، اكتفاء بعلم الله تعالى وإن حزن أو ضاق صدره من كلام قيل فيه فذلك لما يترتب عليه من مصلحة أتباعه، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

يَقُولُونَ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾(٢) ونحو ذلك من الآيات القرآنية.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في حديث عائشة: «أن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ فقال ائذنوا له بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة» فلما دخل ألان له القول وتطلق في وجهه وانبسط إليه.

فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا، فلما دخل ألنت له القول وتطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: «متى عهدتني فاحشا إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه»، وفي رواية: «اتقاء شره».

إن ما قاله ﷺ في هذا الرجل لم يكن بغيبة لأن من الواجب عليه ﷺ أن يعرف الناس أمرهم ويفصح به ويبينه، فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة وأما إلانة القول بعد أن دخل فعلى الائتلاف والمداراة لا من المداهنة ليقتدي به أمته في اتقاء شر الفاحشة بإلانة القول ليسلموا من شره وغائلته.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في حديث: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله سبعين مرة» إن معنى الغائن ما يرد على قلبه الشريف من أنواع المكاشفات من طريق الإلهام بسبب ذنوب أمته وما يقع لهم بعده من الفتن والحروب فيستغفر لهم.

ومما أجابوا به عنه أيضا ﷺ في حديث: «أنا أول شافع وأول مشفع وأنا أول من تنشق عنه الأرض وأنا سيد الناس يوم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٣.
(٢) سورة الحجر: الآية ٩٧.

تقــوم القيامـــة» أنـه ﷺ لم يـزل يذكـر مثـل ذلـك إلا تحدثـا بنعمـة الله تعـالى عليـه، لقولـه تعـالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1] لا فخـرًا واسـتطالة حاشاه ﷺ مـن ذلـك.

تنبيهات:

الأول: في قوله ﷺ: «أنـــا أول شـــافع وأول مشـــفع» زيادة على التحـدث بالنعمـة وهـي إعـلام الأمـة بأنـه ليـس أحـد يشـفع قبلـه، وذلـك ليريحـهم مـن التعـب في ذلـك اليـوم الشـديد ومـن ذهابـهم إلى نـبي بعـد نـبي رجـاء أن يشـفع لهـم، فأرشـدهم ﷺ أنـهم يمكثـون في مكانـهم وينتظرونـه حتى يأتيه النوبة، ويقـول أنـا لهـا أنـا لهـا فمـا ذهب إلى نـبي بعـد نـبي مـن هذه الأمـة إلا مـن لم يبلغـه هـذا الحديث أو بلغـه ثـم نسيه.

الثـــاني: إنمـا خـص ﷺ سـيادته بيـوم القيامـة لأن فيـه يجتمـع الأولـون والآخـرون فلا يكـون أحـد مـن النـاس غائبـا في ذلـك اليـوم، هـذا معنى تخصيص السيادة بيوم القيامـة في هـذا الخـبر.

الثـالث: اعلم أن مقصود الأكابر بالأجوبـة عـن الأنبيـاء عليـهم الصلاة والسلام إزالـة مـا يتوهمـه أصحـاب القلـوب المحجوبـة عـن الله تعـالى خوفـا عليـهم مـن دخولهـم في مقـت الله مـع مـا تقـدم، وإلا فطينـة الأنبيـاء عليـهم الصـلاة والسـلام لا تقبـل أن يصـدر عنـها شيء يكرهـه الحق سبحانه أبدًا كما قال سيدي علي وفا في إنشاده:

عبادك يا مولى الموالي الذين هم ... عبادك محفوظون حفظ الحبائب
من الذر لم يظهر بصافي ذواتهم ... سوى نورك الماحي لجنح الغياهب
مياه صفت ذاتا ومجرًا ومنبعًا ... وصينت عن الأكدار من كل جانب

فـــاعلم ذلــك واحفــظ لســانك وقلبــك في حــق أنبيـــاء الله

---

(١) سورة الضحى: الآية ١١.

وورثتهم إن أردت أن يحفظ عليك إيمانك والحمد لله رب العالمين.

ومما أجابوا به عنه الصحابة رضي الله تعالى عنهم في قوله تعالى في حقهم لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1] أن الآية في حق كل من أسلم قريبا من الصحابة لا في حق أكابرهم، إذ لا يصح وصف أكابر الصحابة بأنهم ينفضون من حوله ﷺ إذ ظهر لهم بمظهر العزة والقهر والسطوة، لأنه أحب إليهم من أنفسهم وولدهم والناس أجمعين.

ومما أجابوا به عن الصحابة أيضا في قوله تعالى في حقهم: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾[2] أن الآية في سياق المدح للصحابة لا في سياق الذم كما يتبادر إلى الأذهان، لأن المراد منكم من يريد الدنيا أي للآخرة، ومنكم من يريد الآخرة أي لله تعالى ففي الصحابة الفاضل والأفضل قاله صاحب الحكم.

قلت: وكذلك قال سيدي علي الخواص، ولفظه العارف منزه عن إرادة الدارين إلا لغرض شرعي كالصحابة رضي الله عنهم، وقول الحق سبحانه في حقهم: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾[3] في غاية البلاغة ولكن فيه تقدير وإضمار، تقديره منكم من يريد الدنيا أي للآخرة ليفعل بها خيرا يثاب عليه فيها، ومنكم من يريد الآخرة أي لله تعالى ليشاهده فيها لا لما فيها من اللذات، إذ لذة نعيم الأكل والشرب والجماع إنما هي بحكم التبع لمشاهدة الله لا بحكم القصد الأول عند الأكابر.

فما أحبوا الدنيا لذاتها ولا الآخرة لذاتها، فثم مقام رفيع

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

ومقام أرفع، وإذا كان المريد يخرج عن حب الدنيا أصلا ورأسا، فكيف بالصحابة الذين هم فوق مقام سائر أشياخ الطريق بيقين فإن ما منهم أحد إلا وهو زاهد في الدنيا.

أما ما ورد في السير أن رسول الله ﷺ قسم مرة ذهبا وقال لعمه العباس يا عم خذ لك من هذا الذهب ما شئت فحثى في ردائه ما لا يستطيع أن يحمله فصار يعالج نفسه في حمله فلا يستطيع، وصار النبي ﷺ ينظر إليه شزرا، فيجب حمل ذلك على أن العباس ﷺ إنما فعل ذلك إظهارا للفاقة إلى فضل ربه تعالى.

وذلك أكمل في حق الأكابر ممن قنع باليسير ولا يجوز حمله على الرغبة في الدنيا على الوجه المذموم.

وكان نظره ﷺ شزرا ليقبح الدنيا في أعين المحجوبين عن مشهده، ولو قدر أنه لم يكن هناك إلا من يعرف مشهده من الأكابر كأبي بكر وعمر لم ينظر إليه شزرا فافهم.

وأما قول أبي عبد الله سفيان الثوري: أن معاوية بن أبي سفيان كان رجلا عالما ولكن غلب عليه حب الدنيا، فالمراد به أنه زاحم على الخلافة ليقوم فيها بالعدل على حسب اجتهاده، فهو مأجور وإن أخطأ لبذله وسعه في نصرة الشريعة المطهرة، وفي حفظ نظام العالم عن الانخرام فسمى سفيان الخلافة بهذا الحكم دنيا بالنظر لمن يريد الله تعالى بالتبتل إليه.

فما أحب معاوية ﷺ الدنيا إلا للآخرة، ولا يجوز حمل حاله على حال غيره من الملوك الذين يقاتلون على الدنيا.

ومما أجابوا به عن الإمام عمر بن الخطاب ﷺ في قوله أما الفساد فلا نريده إن شاء الله تعالى، وأما العلو ففي النفس منه شيء، حين سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ

نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1] الآية، أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا هضما لنفسه واتهاما لها كما هو شأن الأكابر، وإلا فمثل هذا الإمام لا يريد علوا في الأرض بيقين.

ونظر ذلك قول الحسن البصري لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت له صدقت لا تكفر عن يمينك.

ومما أجابوا به عن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في قوله: سلوني عن طرق السماء فإني أعرف بها من طرق الأرض، أن مراده بطرق السماء المقامات كالتوبة والزهد والورع والخشية، وسماها طرقا للسموات لأنها يعرج بنورها إليها، وليس مراده أنه صعد بجسمه إلى السماء لأنه ليس لغير نبي قدم محسوس في السماء.

وقال بعضهم: الأولى عندي أن يحمل على ظاهره، فإن قلوب الأكابر لها سريان إلى السماء بل إلى العرش، لكنها تجول في ملكوت السموات أكثر من الأرض، فلذلك قال فإني أعرف بها من طرق الأرض.

قلت: ويؤيد ذلك ما حكاه سيدي عبد الوهاب الشعراني عن الشيخ عبد القادر الدشطوطي أنه قال: الشيخ محمد بن عنان يعرف السماء طاقة طاقة والله أعلم.

ومما أجابوا به عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله فيما نسب إليه أنه كان يقدم القياس على النص، أن هذا الكلام صدر من متعصب عليه بغير حق، وقد اجتمع به الإمام جعفر الصادق

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٣.

وسفيان الثوري وجماعة من العلماء بجامع الكوفة فناظروه فقطعهم بالحجج، فقالوا له فما دليلك في تقديمك القياس على النص؟

فقال معاذ الله أن يقع مني ذلك إنما أنظر الحكم في القرآن الكريم، فإن لم أجده نظرت في السنة فإن لم أجده، نظرت في أقضية الصحابة، فإن لم أجده قست حينئذ مسكوتا عنه على منطوق به بجامع العلة، فقام سفيان فقبل رأسه، فلم يقع منه قياس إلا بعد أن لم يجد ذلك الأمر في كتاب ولا سنة ولا في أقضية الصحابة.

وذلك أمر لا يختص به بل سائر العلماء يقيسون كذلك، ثم بتقدير أن قياسه خالف النص في بعض المسائل فهو معذور لعدم وجود جمع الأدلة في عصره لأنها كانت متفرقة في المدائن والقرى والثغور مع الصحابة والتابعين، بخلافه في زمن الشافعي وابن حنبل فإن الناس كانوا سافروا في طلب الحديث وجمعوا الأدلة فجاوبت الشريعة بعضها بعضا.

هذا هو الحق ولا يقول عاقل أن الإمام يجد نصا في المسألة فيتركه ثم يأخذ بالقياس حاشاه من مثل ذلك، وقد مدحه الإمام عبد الله بن المبارك، ومالك والشافعي، فلو لم يكن من مناقبه إلا مدح هؤلاء الثلاثة الأئمة لكان ذلك كافيا في غزارة عمله ودينه وفي براءة ساحته مما نسب إليه.

ومما أجابوا به عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله في عدم حضوره الجماعة خمسا وعشرين سنة، أنه لولا رأى عذر يبيح له التخلف عن الحضور ما تخلف، فالتسليم لمثل هذا الإمام أسلم وحمله على محمل حسن أغنم.

وقال بعضهم: إنما سومح في ذلك لأنه مجتهد فلو فعل ذلك غيره لا يقر عليه.

ومما أجابوا به عن الإمام الشافعي رحمه الله في قوله:

ولولا الشعر بالعلماء يزري · لكنت اليوم أشعر من لبيد

ولولا خشية الرحمن ربي · لقلت الناس كلهم عبيدي

إن المراد بما ذكره في البيت الأول شكر النعمة، فإن من شكر النعمة إظهارها والتحدث بها لا فخرا أو استطالة حاشاه من مثل ذلك، ويعني بالناس في البيت الثاني أبناء الدنيا الذين يحبونها بحكم الطبع بقرينة قول بعض العارفين لبعض الملوك أنت عبد عبدي، فقال له: لم ذا؟ فقال لأنك عبد للدنيا والدنيا خادمة لي ومراد الإمام سؤال أبناء الدنيا ونحو ذلك.

ومما أجابوا به عن تجريح الحفاظ للحديث بعض الرواة، أن ذلك التجريح إنما كان منهم نصرة للدين، ولهم فيه من الثواب مثل ثواب من يسبح الله ويحمده، وقد كان الإمام البخاري يقول أرجو أن ألقى الله ولا يطالبني بغيبة أحد من المسلمين، قيل له: فماذا تصنع في تجريحك لبعض الرواة؟ فقال: ذلك من نصرة الدين نثاب عليه ثواب الواجب إن شاء الله تعالى.

وما حرمت الغيبة إلا لغير غرض شرعي كالتشفي من الأعداء والحسدة اهـ. فعلم أن تجريح الحفاظ ليس من الغيبة المحرمة ولا المباحة بل من الغيبة الواجبة.

تنبيه: قال بعضهم: في ضمن تضعيف الحفاظ لبعض رواة الحديث رحمة من الله مبطونة للمسلمين، لأنهم لو صححوا جميع الأحاديث التي قيل بضعفها شق على الأمة العمل بها، ولم يكن لهم في تركها عذر بخلاف ما ضعف فإن للناس فيه فسحة لكون العمل به راجعا إلى اختيارهم..

وقد قيض الله بعض الأولياء للعمل بما ضعفه المحدثون حتى لا يفوت الأمة العمل بشيء من السنة، فكان ذلك من جملة ما حفظت به الشريعة المطهرة عن النقص فالحمد لله رب العالمين.

ومما أجابوا به عن جملة من المسائل التي اختلف فيها الأئمة في الوضوء والصلاة، يعني على طريق الجمع بين تلك الأقوال المتضادة، أن وجه من قال لا يصح الوضوء بالماء المستعمل في فرض الطهارة كون الخطايا قد خرت فيه بنص الحديث وما تخر فيه الخطايا فهو مستقذر شرعا.

فلا ينبغي لمؤمن أن يتطهر به لأن من شأن المقام الطهارة أنها تزيد الجسد طهارة ونشاطا، والوضوء من غسالة الخطايا يزيد الجسد تقذيرا وفتورا كما يعرف ذلك أهل الكشف.

وكان الإمام أبو حنيفة ممن كشف له عن ذلك فإن له قولا إن حكم الماء المستعمل في حدث حكم النجاسة المغلظة، وله قول آخر: كالمتوسطة، وله قول آخر: إنه طاهر غير طهور، ووجه كونه كالمغلظة الأخذ بالاحتياط الأكبر وهو حمل الغسالة على أنها غسالة كبائر، ووجه كونه كالمتوسطة الأخذ بالاحتياط المتوسط، وهو حملها على أنها غسالة صغائر ووجه كونه طاهرا في نفسه غير مطهر لغيره أن الأصل عدم ارتكاب الناس الكبائر والصغائر والمكروهات وإنهم لم يرتكبوا سوى خلاف الأولى.

قلت: وقد كان بعض أهل الكشف يقول رحم الله أبا حنيفة حيث عم بأقواله الثلاثة الكبائر والصغائر والمكروهات، فلو كشف حجاب العبد لرأى الماء المستعمل كالذي وقع فيه جملة من الحيوانات الميتة والخنازير والكلاب والحمير والحشرات على حسب تفاوت المعاصي التي خرت في ذلك الماء.

وفي مناقب سيدي إبراهيم المتبولي أنه كان إذا نظر في الميضأة يعرف جميع الذنوب التي خرت في الماء، ويراها عروقا عروقا مجاورة لبعضها بعضا، ويميز بين غسالة كل ذنب عن الآخر من كبائر وصغائر ومكروهات وخلاف الأولى، وذكر أنه لم ير في غسالة الكبائر أقبح لونا ولا أنتن ريحا ولا أغلظ عروقا من غسالة اللواط وقتل النفس والوقوع في أعراض المسلمين والتعاون فيهم عند الحكام والاستهزاء بهم.

قالوا ويؤيد ما ذكرناه في تقسيم الغسالة قوله ﷺ لعائشة لما قالت له حسبك من صفية إنها قصيرة: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» أي لو وقت في البحر لغيرته وأنتنته، فإذا كان مثل هذا الكلمة يغير ماء البحر لو وقعت فيه فما ظنك بغسالة الذنوب العظام إذا سقطت في فسقية صغيرة فمن منع الوضوء من فساقي المساجد ليس بمخطئ فإنها بالنسبة للبحر كقطرة صغيرة فهي أولى بالتقذير والتغيير.

وأما وجه من جوز الطهارة بالماء المستعمل فهو لأن تقذير الماء بالخطايا أمر غير مشهود إلا لأهل الكشف، ولا ينهى الإنسان إلا عن شيء شهد قذارته وتغييره على اختلاف المقامات.

وأما وجه من منع الوضوء من الماء المعتصر من النبات والأشجار فهو لأن مشروعية الطهارة إنما جعلت لإنعاش البدن ليقوم العبد إلى مناجاة ربه ببدن حي ومعلوم أن الماء المعتصر ضعيف الروحانية لأن الروحانية التي كان فيه قد انتقلت إلى الحب والنبات مثلا حتى اخضر ذلك الزرع وكثرت أوراقه وأغصانه فصارت روحانية ذلك الماء ضعيفة لا تنعش بدن المتوضئ، ومن شك في هذا فلينظر بدنه إذا توضأ بماء البئر الذي لم يستعمل وبماء الشجر فإنه يجد بدنه ينتعش بماء البئر أكثر.

وأما وجه من أوجب الترتيب في أعضاء الوضوء وأبطل الوضوء إذا لم يترتب فلأنه لم ينقل أن الشارع ﷺ توضأ غير مرتب أبدا، وفي الحديث: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» فالترتيب مأمور به أولا، ثم نهض به إلى الوجوب اجتهاد المجتهد.

ووجه من صحح الوضوء بغير ترتيب جعل الواو في آية الوضوء لغير الترتيب وإن المقصود غسل جميع هذه الأعضاء قبل القيام للصلاة والدخول فيها ويؤيده ما روي عن علي أنه قال: لا أبالي أبدأ برجلي أو بوجهي.

وأما وجه من أوجب الموالاة من حيث الاعتبار والحكمة فهو أن الطهارة إنما شرعت لإنعاش البدن مما تولد من وقوع صاحبه في المعاصي أو الشهوات أو الغفلات حتى كاد البدن يموت أو يضعف أو يفتر، فلو لم يوجب الموالاة لأدى إلى زيادة البطء في زمن الطهارة، وبذلك يذهب المقصود من حكمة الوضوء وهي إنعاش البدن قبل الدخول في الصلاة، فيقوم ببدن ميت أو ضعيف أو فاتر، فالموالاة من أصلها مأمور بها ونهض بها الاجتهاد إلى الوجوب كما مر.

وأما وجه من قال إن النية لا تجب في الوضوء وتجب في التيمم فهو إن الماء يحيى ما سرى إليه بطبعه ولو بلا نية فاعل، كالأرض التي سال عليها الماء من غير فعل إنسان فإنها تحيا وتصلح للزرع وتنبت الحب الذي بذر فيها فكذلك القول في حياة الأعضاء بالماء.

وأما التراب فإنه ضعيف الروحانية بالنسبة إلى الماء فاشترط معه النية تقوية لروحانيته من حيث أن الهمة تؤثر فيما قابلها.

وأما وجه من قال يصلي بتيمم واحد ما شاء من الفرائض

فلأن الشارع ﷺ سكت عن ذلك ولو أنه لا يؤدي به غير فرض لنبه عليه ولو في حديث.

وأما وجه من نقض الوضوء بالنوم ولو ممكنا مقعدته من الأرض، فلأن النوم أخو الموت كما ورد وهذا خاص بالأكابر.

وأما وجه من قال لا ينقض الوضوء مس الفرج، فلأن الناقض حقيقة إنما هو الخارج لا المحل، ولذلك ورد فيمن مس فرجه ما يعطي عدم النقض في حديث: «هل هو إلا بضعة منك».

وأما وجه من نقض الوضوء بمس الفرج باليد إلى المرفقين ظهرا أو باطنا، فلأن اليد تطلق على ذلك كله وفي الخبر إذا أفضى أحدكم بيده إلى فرجه فليتوضأ.

وأما وجه من نقض ببطن الكف فقط فهو عمل بما عليه أهل اللغة في تخصيص الإفضاء ببطن الكف دون غيره.

وأما وجه من لم يوجب الغسل بالجماع من غير إنزال، فهو لخفة اللذة فيه بخلاف من أنزل، فإن اللذة تعم جسده كله، ولذلك أمر بغسل جميع بدنه.

وأما وجه من أباح وطء الحائض إذا انقطع دمها وغسلت فرجها فقط، فلأن الوطء إنما حرم حال الحيض للأذى الخارج من الفرج وقد زال، وحكم غسل بقية البدن إنما هو زيادة تنظيف، وقس على ذلك بقية المسائل التي تركناها.

وأما توجيه أقوال الأئمة في الصلاة فوجه من قال يجب على المصلي استحضار أفعال الصلاة وأقوالها حال التكبير، فلأن المصلي الحقيقي يدخل حضرة الحق تعالى بالروح وذلك سهل على مثله فهو خاص بالأكابر.

ووجه من قال لا يجب ذلك لعسره فهو في حق من غلبت جسمانيته على روحانيته فإنه لا يتعقل أمرا إلا بعد شهود ما قبله وهكذا، وذلك يؤدي إلى طول زمن بخلاف الروح فإنها تدرك الأشياء جملة في آن واحد فهذا في حق قوم وذاك في حق قوم.

وأما وجه من أمر المصلي بالاستعاذة في كل ركعة، فهو لأن غالب المصلين ضعيف الحال ليس له عزم يطرد به إبليس عنه باستعاذته مرة واحدة أول القراءة، فأمر بالاستعاذة في كل ركعة ويؤيده ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾(1) ولا شك أن كل ركعة فيها قراءة جديدة لتخلل الركوع والسجود بين كل قراءتين.

وأما من كره الاستعاذة في الصلاة، فذلك في حق الأقوياء الذين لا يقرب إبليس إلى قلوبهم.

وأما وجه من أوجب البسملة في قراءة الفاتحة في كل ركعة، فهو الاتباع للشارع ﷺ ومن لم يوجبها فلعدم ثبوتها عنده، ووجه ذلك من حيث الاعتبار فهو إن ذكر الاسم إنما يكون عند الغيبة عن مشاهدة صاحب الاسم، فمن شاهد الحق تعالى بقلبه كفاه مناجاته من غير ذكر اسمه، فلكل مجتهد مشهد.

وقال صاحب المواقف أوقفني الحق تعالى بين يديه وقال لي: إن لم ترني فالزم اسمي فما أمره تعالى بلزوم اسمه إلا إذا لم يره عز وجل.

وأما وجه من قال يرخي يديه بجنبيه دون أن يضعهما تحت صدره كما ورد، فذلك في حق من تشغله مراعاة كون يديه تحت صدره لا تنزلان عنه عن كمال الإقبال على الله تعالى، لأن

---

(1) سورة القصص: الآية ٨٣.

من شأن النفس العجز عن مراعاة شيئين في آن واحد إلا بقوة يمد الله بها العبد.

وإذا تعارض معنا أمران راعينا الأفضل منهما ولا شك أن إقبال العبد على خطاب ربه من غير التفات إلى غيره أولى من أن يشتغل بيديه خوفا أن ينزلا إلى سرته أو ينفكا عن وضع اليمنى على اليسرى فوضع اليدين تحت الصدر خاص بالأكابر الذين لا يشغلهم عن الله شاغل، وإرخاؤهما خاص بالأصاغر كما تقرر.

وبذلك حصل الجمع بين مذهب مالك وغيره، فالشارع ﷺ أمن المجتهد على شريعته فلا يخالف ظاهرها إلا لأمر برضى به.

وأما وجه من قال لا تصح الصلاة إلا بفاتحة الكتاب دون غيرها فللأحاديث الصحيحة في ذلك، ووجه من قال يجزئ غيرها من القرآن الكريم فلأن القرآن صفة من صفات الله، وصفاته تعالى لا تقبل التفاضل من حيث ذاتها وإنما التفاضل راجع إلى القراءة والقارئ لا إلى المقروء، وحديث لا صلاة إلا بفاتحة يحمله على نفي الكمال لا على نفي الصحة.

وأما وجه من أمر المصلي بمراعاة أنغام في القرآن فهو في حق الأكابر الذين أقدرهم الله على رفع الصوت بين يديه عز وجل من غير اشتغال عنه بذلك، وأما من قال يقرأ ساذجا فهو في حق العاجز عما ذكر وهو حال أكثر الناس سلفا وخلفا.

وأما وجه من لم يشترط كمال الاعتدال عن الركوع والسجود فهو خاص بالأكابر الذين يقدرون على توالي شهود عظمة الله في ركوعهم وسجودهم، وقد كان ﷺ يطول الركوع والسجود تارة ويخففهما أخرى ليقتدي به الأقوياء والضعفاء.

وفي الحديث كان إذا جلس بين السجدتين كأنه جالس على

الرضف أي الحجارة المحماة يعني فيرجع إلى السجود بسرعة لقوته ﷺ فإنه ابن الحضرة وأخو الحضرة وأبو الحضرة لا أحد من البشر أكثر جلوسا منه فيها، وإنما كان يخفف رحمة بأمته.

وأما من اشترط كمال الاعتدال عن الركوع والسجود فهو في حق الضعفاء رحمة بهم لعجزهم وضعفهم عن طول شهود العظمة التي في الركوع والسجود، فلو أراد أحدهم أن ينزل إلى السجود من غير اعتدال لربما زهقت روحه.

فلذلك شرع لها الشارع ﷺ الاعتدال لتستريح فيه من ثقل تلك العظمة فما نقل عن أبي حنيفة خاص بالأكابر وما نقل عن غيره خاص بالأصاغر.

وأما وجه من قال بوجوب الطمأنينة في الركوع والسجود فهو في حق الأكابر الذين يقدرون على شهود الهيبة التي في الركوع والسجود، ووجه من قال بعدم وجوبها فيهما فهو في حق الضعفاء.

أما الركوع فلأن الضعيف لما كان قائما وتجلت له عظمة الله فربما لم يقدر على كمال الطمأنينة لشدة ما تجلى له من العظمة فيرجع إلى القيام بسرعة وهو الاعتدال لعجزه.

وكذلك القول في السجود بل هو أولى بالرجوع إلى الجلوس بين السجدتين عن قرب، لأن السجود أقرب حضرة يدخلها المصلي فربما حكمت عليه الهيبة فيه فكاد عظمه أن يذوب فأسرع بالرجوع إلى الجلوس تنفيسا له ورحمة بنفسه.

وفي القرآن العظيم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] فعلم أن أصل الاعتدال عن الركوع والسجود لابد لكل مصل منه من

---

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.

أكابر وأصاغر لعجزهم عن توالي شهود عظمة الله في الركوع والسجود من غير اعتدال أصلا، وعلم أيضا أن العبد كلما ضعف خوطب بزيادة الطمأنينة في السجود وأكثر.

وأما وجه من قال بوجوب الطمأنينة في الجلوس بين السجدتين فهو خاص بالضعفاء، ووجه من قال بعدم الوجوب فهو خاص بالأقوياء كما يعلم ذلك مما تقدم.

وأما وجه مشروعية جلسة الاستراحة فهو أن العظمة التي حصلت للمصلي في سجوده لا عظمة فوقها فلو أن المصلي المستحضر لعظمة الله طلب أن ينهض إلى القيام من غير جلسة الاستراحة ما قدر، فلذلك شرعت جلسة الاستراحة رحمة بالأمة.

ومن شك في هذا ممن صلاته صورية فليصرف شواغله ويجمع حواسه بحيث لا يصير في ذهنه إلا الله فإنه لو أراد أن يقوم إلى القيام من غير جلوس لا يقدر، فكان خطور الأكوان على قلوب الضعفاء حال سجودهم من جملة الرحمة بهم وإلا تقطعت مفاصلهم وماتوا عن آخرهم، لأن كل من تجلى له من عظمة الله ما فوق طاقته مات.

وأما وجه من قال طول القيام أفضل من تكرار السجود والركوع فهو في حق الأصاغر الذين لا يطيقون عظمة الله التي في الركوع والسجود، ومن قال بالعكس فهو في حق الأكابر الذين يحملون تلك العظمة كما يعلم ذلك مما تقدم.

وأما وجه من لم يوجب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير فلأن حضرة الصلاة خاصة بالله فربما قويت هيبة الله على قلب المصلي فمنعته من الالتفات إلى أحد سواه.

فجعل بعض العلماء الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة في حق

مثل هذا مستحبة، بخلاف الأكابر الذين يشهدون الله مع خلقه لا يشغلهم شهوده عن شهود خلقه ولا عكسه، فإن الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة واجبة عليهم لأنه واسطتهم عند الله لا يمكن أحدا منهم أن يفوت إلى حضرة الله تعالى في عبادة من العبادات إلا وهو أمامهم فيها.

وأما وجه من قال بوجوب التشهد فإنه صرف الأمر في الحديث للوجوب، ومن قال بعدم الوجوب فإنه صرف الأمر للندب، ومعنى قول الصحابي عنده كنا نقول قبل أن يفرض علينا التشهد أي قبل أن يشرع لنا.

وأما وجه من قال تجب نية الخروج من الصلاة فلأن المصلي في حضرة الله الخاصة، ومعلوم عند أهل الأدب أن أحدهم إذا كان مجالسا كبيرا فلابد أن يستأذنه في المفارقة تعظيما له، فالله أحق بذلك.

وتأمل إذا قام جليسك من مجلسك بغير استئذان كيف تجد نفسك منه وحشة لإخلاله بالتعظيم والأدب عكس ما تجده من الأنس إذا استأذنك، وما كان أدبا مع الأكابر من الخلق فالله أولى به وأحق.

ووجه من لم يوجب ذلك فنظر إلى سعة رحمة الله ومسامحة عباده في مثل ذلك ولو أن ذلك كان واجبا لأمرنا الشارع ﷺ به ولو في حديث.

وأما وجه من قال من صلى في جماعة فلا يعيدها في جماعة أخرى، فذلك خاص بالأكابر الذين لا يخرجون من حضرة الله حتى تنقضي تلك الصلاة، ومن جوز ذلك فهو في حق الأصاغر الذين لا يقيمون في الحضرة حتى تنقضي صلاتهم.

فرحم الله أئمة الدين، ما كان أنور قلوبهم، وما كان أعرفهم بطريق الأدب ومنازل الأحكام وبما فيها من الحكمة والأسرار.

ومما أجابوا به عن أبي يزيد البسطامي في قوله: خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله.

أن معنى ذلك أن أبا يزيد يشكو ضعفه وعجزه عن اللحوق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لأنهم خاضوا بحر التوحيد، ووقفوا من الجانب الآخر يدعون الناس إلى الخوض، أي فلو كنت كاملا لوقفت حيث وقفوا.

قال صاحب الحكم وهذا التفسير هو اللائق بمقام أبي يزيد، فإن المشهور عنه التعظيم لمراسم الشريعة والقيام بكمال الأدب.

ومن كلامه جميع ما أخذ الأولياء بالنسبة لما أخذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كزق مليء عسلا، ثم رشحت منه رشحة، فما في بطن الزق للأنبياء وتلك الرشحة للأولياء.

ومما أجابوا به عنه أيضا: فيما نقل عنه أنه قال لبعض مريديه: لأن تراني مرة خير من أن ترى ربك ألف مرة[1]، أن مراده أن المريد ليس له قدم في معرفة الله إذا رآه فإنه يراه ولا يعرف إنه هو، فلا يعرف يأخذ عنه سبحانه علما ولا أدبا، بخلاف أبي يزيد فإنه ينتفع به ويعلمه الأدب مع الله حتى يرقيه إلى معرفته سبحانه والله أعلم بمراده.

ومما أجابوا به عنه أيضا: فيما نقل عنه أنه قال طاعتك لي يا رب أعظم من طاعتي لك، أن مراده بالطاعة إجابة دعائه، أي إجابتك يا رب دعائي أعظم من إجابتي أنا امتثال أمرك

---

(١) هذه من شطحات الصوفية التي لا تجوز تأدبا مع الله سبحانه وتعالى، يقول كبار رجال الصوفية: ما وافق الكتاب والسنة أخذنا به، وما خالفهما تركناه، وذلك مما يخالفهما. راجع كتاب «تنبيه المغترين» و«الطبقات الكبرى» و«الطبقات الصغرى» وهي من تأليف الإمام الشعراني رحمه الله وبتحقيق وضبط أ.د. أحمد السايح الأستاذ بجامعات الأزهر وقطر وأم القرى، والمستشار توفيق وهبة رئيس المركز العربي للدراسات والبحوث.

واجتناب نهيك، لأنك عظيم وأنا حقير وأنت سيد وأنا عبد وهذا معلوم ظاهر، وكذلك سير أهل الأدب مع الله مثل ذلك.

ومما أجابوا عنه أيضا فيما نقل عنه أنه كان له ثوب لخلائه وثوب لصلاته إن ذلك لم يكن لأجل الذباب الواقع على ثوبه، وإنما ذلك حتى لا يكون ثوب خلائه ثوب صلاته، يقصد بذلك تعظيم حضرة الله الخاصة أن يقف فيها بثوب تدنس بدخول حضرة الشياطين من حيث إنها رجس.

قالوا: وهذا نظير ما ورد من النهي عن استقبال القبلة ببول أو غائط بشرطه، حتى لا يجعل المصلي جهة خلائه جهة صلاته.

ومما أجابوا عنه أيضا: فيما نقل عنه أنه قال بطشي أشد من بطش الله حين سمع قارئا يقرأ: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1] أنه لا إنكار في ذلك لأن بطش الله بعبده لا يكون إلا مخلوطا بالرحمة، لأن رحمته تعالى بعبده سبقت غضبه عليه فهو أرحم بعبده المؤمن من والدته الشفيقة.

ولا هكذا بطش أبي يزيد فإنه بطش انتقام لا يشوبه رحمة لضيقه، فكان بطشه بأخيه أشد من بطش الله بعبده لا سيما عدوه، فإنه لا يكاد يرحمه في الدنيا ولا في الآخرة.

ومما أجابوا به أيضا: فيما نقل عنه أنه قال سافرت من الله إلى الله أن مراده سافرت في طريق الله فضلا من الله إلى أن عرفت الله، أو سافرت في حب الله من باب قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿٦٩﴾ ﴾[2].

ويصح أن يكون مراده ابتداء سفري إلى انتهائه بحول الله

---

(١) سورة البروج: الآية ١٢.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

وقوته لا بحولي ولا قوتي، وليس مراده بذلك مسافة، تعالى الله وتقدس عن التحيز.

تنبيه:

قال شيخنا: ومما لم يصح نقله عن أبي يزيد البسطامي ما نقله بعضهم عنه وحكاه في طبقاته أنه قال: إن أبانا السيد آدم ﷺ باع حضرة ربه بلقمة، فإنه كان من الجامعين بين الشريعة والحقيقة فكيف يصدر منه مثل هذا الكلام الجافي في حق نبي من أكابر الأنبياء حاشاه أن يقع منه ذلك.

وكذلك مما لم يصح نقله عنه أنه قال لو شفعني الله في الأولين والآخرين لم يكن عندي بكبير، غاية الأمر أنه شفعني في قطعة طين فإن هذا الكلام لا يصدر من مثل هذا لأنه يبطل خصوصية الشارع ﷺ.

ومما أجابوا به عن الجنيد في قوله أدركت سبعين عارفا كانوا يعبدون الله على ظن ووهم حتى أخي أبو يزيد، ولو أدرك صبيا من صبياننا لا سلم على يديه أن معنى ذلك أنهم كانوا يقولون ما بعد المقام الذي وصلناه مقام، وذلك ظن ووهم فإن فوق كل مقام مقامات إلى ما لا يتناهى.

وليس مراده الظن والوهم في معرفة الله.

ومعنى لا سلم على يديه أي انقاد له لأن الإسلام هو الانقياد ومراد الجنيد بذلك شكر النعمة.

ومما أجابوا به عنه أيضا في قوله: العارفون لا يموتون وإنما ينقلون من دار إلى دار، أن مراده أن العارفين لما جاهدوا نفوسهم حين سلوكهم حتى ماتت عن جميع إرادتها وأهويتها، صارت إذ ذاك في حكم الأموات في عدم إضافتها الفعل إلى نفسها وشهودها التصريف لله وحده.

وفي الحديث: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر» أي لأن تسليمه لله محق نفسه حتى صارت كنفس الميت، وليس مراده أنهم لا يذوقون الموت حين انتهاء آجالهم، إذ كل نفس تذوق الموت عند انتهاء أجلها بنص القرآن الكريم.

ومما أجابوا به عن الإمام سهل بن عبد الله التستري في قوله: لا تكونوا من أبناء الدهور، وكونوا من أبناء الأزل، أن معنى ذلك لاحظوا ما سبق في علم الله ولا تتكلوا على علمكم وعملكم مدة عمركم.

ومما أجابوا به عن أبي صالح حمدون القصار في قوله: من ظن أن نفسه خير من فرعون فقد أظهر الكبر والعياذ بالله تعالى أنه لا إنكار في ذلك لأن خاتمة العبد مغيبة، فقد يختم له والعياذ بالله تعالى بالكفر فيكون مثل فرعون.

فليس مراده الحالة الراهنة وإنما مراده النظر إلى ما يؤول أمر العبد إليه بحكم اليقين في الآخرة، وذلك أمر مغيب ومن نظر إليه لم ير نفسه خيرا من أحد.

ومما أجابوا به عنه أيضا: في قوله حقيقة التقوى، ترك التقوى، أن مراده بذلك عدم تزكية النفس وعدم الاعتماد على التقوى، أو مراده عدم رؤية التقوى، ونظير ذلك قول بعضهم حقيقة التوبة، التوبة من التوبة، فليس مراده الإصرار وإنما مراده عدم الاعتماد على التوبة.

ومما أجابوا به عن الشبلي في قوله ما في الجبة إلا الله، وقد ضبطها بعضهم بالجيم والموحدة أن مراده ما في جسدي إلا حب الله.

وكم في الكتاب والسنة من كلام يجب فيه التقدير كما في قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾[1] أي أشربوا حب العجل فافهم.

ومما أجابوا به عنه أيضا في قوله: ذلي أعظم من ذل اليهود، أن مراده بذلك أن ذله لله أعظم من ذل اليهود، لأن ذل الذليل يكون على قدر معرفته بعظمة من ذل له ولا شك أن الشبلي أعرف بعظمة الله من اليهود، فذله أعظم من ذلهم.

وأما ما نقله القشيري عنه أنه أذن مرة فلما أتى بالشهادتين وقف وقال: وعزتك لولا أنك أمرتني بذكر رسولك ما استطعت أن أذكره، فذلك كان منه قبل كماله.

ومما أجابوا به عن حجة الإسلام الغزالي في قوله: ليس في الإمكان أبدع مما كان أن مراده أن جميع الكائنات أبرزها الله على صورة ما كانت في علمه القديم لا يقبل الزيادة، فلو صح أن في الإمكان أبدع مما كان، ولم يسبق به علمه تعالى للزم عليه تقدم جهل وذلك محال تعالى الله عنه فافهم.

قال شيخنا: وهذا معنى قول الشيخ محيي الدين في تأويل ذلك: إن كلام حجة الإسلام الغزالي في غاية التحقيق، لأنه ليس لنا إلا رتبتان قدم وحدوث.

فالحق سبحانه له رتبة القدم، والحادث له رتبة الحدوث، فلو خلق الله سبحانه وتعالى ما خلق إلى ما لا يتناهى عقلا لا يرقى عن رتبة الحدوث إلى رتبة القدم أبدا.

ومما أجابوا به عن سيدي عبد الرحيم القنائي في قوله لمن جاء يشاوره في أمر: أمهلني حتى أشاور لك فيه جبريل، فيمهله

---

(١) سورة البقرة، الآية ٩٣.

ساعة ثم يقول له افعل أو لا تفعل، أن مراده بجبريل صاحب فعلته هو من الملائكة لا جبريل الآية والله أعلم.

ومما أجابوا به عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي في قوله: من قعد مع هؤلاء الطائفة وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله منه نور الإيمان، أن المراد نوع الإيمان بذلك الكلام الذي خالفهم فيه لا نور سائر أنواع الإيمان، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ونظيره لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن أي بأن الله يراه حال الزنا.

ومما أجابوا به عن السيد عبد القادر الجليلي رحمه الله تعالى في قوله: قدمي هذا على عنق كل ولي لله تعالى، أن هذه الكلمة من باب التحدث بالنعمة والشكر عليها لا من باب الفخر والاستطالة والدعوة.

ووقع له أنه مرة دخل ومعه اثنان ورجل كان يلقب بالغوث، وكان من شأنه أن يختفي إذا شاء، ويظهر إذا شاء فقال السيد عبد القادر نويت التبرك بهذا الرجل وقال الآخر أنا لا أعتقده إلا أن أظهر لي كرامة، وقال الآخر أنا منكر عليه، فبينما هم جالسون إذ ظهر من بينهم فنظر إلى من قال أنا منكر وقال أنت المنكر علي إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك.

وقال للآخر أنت الذي تقول لا أعتقده إلا أن أظهر لي كرامة ستخر عليك الدنيا إلى شحمة أذنيك.

وقال للسيد عبد القادر أنت الذي تزورني للبركة، سيعلو شأنك حتى تؤمر أن تقول قدمي هذه على عنق كل ولي لله تعالى ويخضع لك أولياء الشرق والغرب فكان الأمر كما قال.

فإما المنكر فسافر من بغداد ليناظر القس.

ومما أجابوا به عن الأستاذ سيدي إبراهيم الدسوقي في قوله في آخر قصيدته التائية:

وبي قامت الأشياء في كل أمة	بمختلف الآراء والكل أمتي
نعم نشأتي في الحب من قبل آدم	وسرى في الأكوان من قبل نشوتي
أنا كنت في رؤيا الذبيح فداءه	بلطف عناياتي وعين حقيقتي
أنا كنت مع إدريس لما ارتقى	وأسكن في الفردوس أنعم ببقعة
أنا كنت مع عيسى وفي المهد	وأعطى داود حلاوة نعمتي (١)

إن ذلك وقع على لسان رسول الله ﷺ، فإن الولي تارة يتكلم حال غيبته عن نفسه على لسان النبوة، وتارة يتكلم على لسان الألوهية.

وقال بعضهم: ما في قصائد الأكابر من الاستطالة إنما هو بلسان الأرواح ولا يعرف هذا إلا من عرف صدور الأرواح من أين جاءت وإلى أين تذهب؟ وكونها كالعضو الواحد من المؤمن إذا اشتكى ألما تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وذلك خاص بالكامل المحمدي لا يعرفه غيره.

ومما أجابوا به عن الشيخ محيى الدين بن العربي في قوله: حدثني ربي بارتفاع الوسائط، وكان يقول ذلك كثيرا أنه ليس مراده أن الله كلمه كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما مراده أن الله يكلمه على لسان ملك الإلهام، بتعريف بعض الأحوال، فهو من باب حديث: «إن يكن في أمتي محدثون بفتح الدال المشددة فعمر».

---

(١) هذه شطحات لا نؤيدها والأفضل الابتعاد عن أمثالها لأن ذلك يشوش على الناس، ونحن مع كبار علماء التصوف وكبار فقهاء الأمة أن ما وافق الكتاب والسنة نأخذ به، وما خالفهما تركناه.

وإيضاح ذلك أن من الفرق بين وحي الإلهام للأولياء وبين وحي الأنبياء المتعلق بتشريعهم لأنفسهم أو لأممهم، أن النبي يشهد الملك ويسمع كلامه فيجمع بين الرؤية وسماع الكلام، ولا هكذا الولي، فإنه سمع كلام الملك لا يرى شخصه، وأن رأى شخصه لا يسمع منه كلاما.

والسر في ذلك كون النبي مشرعا، والولي تابعا يدعو بشرع نبيه المقرر عنده، فلا يحتاج إلى مزيد انكشاف أمر.

وأما النبي فيريد ينشئ شرعا جديدا وينسخ شرعا آخر، فلذلك احتاج إلى مزيد تأكيد وانكشاف أمر، ففرق بين وحي الكلام ووحي الإلهام تكن من العلماء الأعلام.

ومما أجابوا به عنه أيضا: في قوله: اللوح المحفوظ هو قلب العارف، أنه ليس مراده نفي اللوح المحفوظ، وإنما مراده أن قلب العارف إذا تجلى ارتسم فيه كل ما كتب في اللوح المحفوظ نظير المرآة إذا قابلها لوح مكتوب[١].

ومما أجابوا عنه أيضا: إلى قوله: أن الحق ذات كل شيء، والمحدثات أسماؤه، أن معنى الأول لا يقومه ويوجده ويحققه إلا الله تعالى، لأن الذات العلية هي المقومة المحققة للعرض، فلما كان الحق تعالى من المحدثات بهذه المنزلة هو قيومها الذي لا قيام لها بدونه أطلقوا عليه ذاتها.

وأما كونها أسماءه فلأنها دالة عليه دلالة لازمة ذاتية كدلالة المفعول على فاعله، والاسم ما دل بذاته على ما وضع له فمن ثم سموا المحدثات أسماء لقيومها الذي أوجدها.

ومما أجابوا به عنه أيضا في قوله:

---

(١) هذا أمر لا دليل عليه.

توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر — وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر

وقدم أما ما صرت أنت أمامه — وصل صلاة الفجر في أول

فهذي صلاة العارفين بربهم — فإن كنت منهم فانضح البر

إن مراده بالوضوء هنا طهارة أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية، وماء الغيب هو خلوص التوحيد فإن لم يخلص لك بالعيان فتطهر بصعيد البرهان، وقدم إماما كان في يوم الخطاب ثم صرت أنت إمامه بعد سدل الحجاب.

وصل صلاة الفجر التي هي صلاة نهار كشف الشهود، بعد ظلمة الوجود، في أول العصر الذي هو أول انفجار فجرك، ولا تتأخر لآخر دورك، فإن الحكم للوقت والتأخير له مقت.

فهذي صلاة العارفين بربهم وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية في جميع مشاهد الربوبية، فإن كنت منهم فانضح أي اغسل بماء بحر الحقيقة ما تدنس من بر الطريقة.

ومما لم يصح نقله عنه قوله بقبول إيمان فرعون لأنه من أهل الكشف بيقين، وقد انعقد إجماع أهل الكشف قاطبة على كفر فرعون، وذلك لأنه آمن عند رؤية اليأس والإيمان عند رؤية اليأس غير مقبول.

وكذا مما لم يصح نقله عنه قوله بجواز المكث للجنب في المسجد، فإن صح ذلك عنه فإنه لم ينفرد به، بل هو موافق للإمام عبد الله بن عباس وابن حنبل والمزني وجماعة من التابعين وبقية مسائل كثيرة نسبت إلى الشيخ وهي كذب وافتراء عليه فلا نذكرها.

---

(١) الأفضل الابتعاد عن مثل هذا الشطح.

ومما أجابوا به عن سيدي عمر بن الفارض رحمه الله في قوله:

وقلت لزهدي والتنسك والتقى	تخلوا وما بيني وبين الهوى خاوا

إن مراده بذلك عدم الوقوف مع الزهد والتنسك والتقى وعدم الاعتماد على ذلك.

ومما أجابوا به عنه أيضا في قوله:

تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا	وخل سبيل الناسكين وإن حاوا

أن مراده هنا بالحياء، الحياء الطبيعي لا الحياء الشرعي، والحياء الطبيعي معدود عند العارفين من جملة الكبر، وهو المشار إليه في قول بعضهم كسر قفص طبعك يكشف لك الغطاء، ومراده بالناسكين العباد الذين يراعون الناس ويقفون مع أعمالهم ويعتمدون عليها، ومعنى إن حاوا أي عظموا في أعين العوام.

ومما أجابوا به أيضا في قوله التائية:

وألسنة الأكوان إن كنت واعيا	شهود بتوحيدي بحال فصيحة
وإن عبد النار المجوس وما	كما جاء في الأخبار في كل حجة
فما عبدوا غيري وما كان	سواي وإن لم يضمروا عقد نية[1]

إن ذلك وقع منه على لسان الألوهية، وأراد بقوله شهود بتوحيدي أي التوحيد الحالي المدخل للمؤمن والكافر في حكم العبادة بالحال، وقوله بحال فصيحة أخرج التوحيد القالي ولم يتعرض له ولا لأهله لأنه مخصوص بالمؤمنين دون الكافرين، وليس هو المقصود الأعظم في الآية المقتبس منها البيت، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(١) هذا القول يخالف الحديث الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات»، وكيف يكون المجوسي عابد النار عابدا لله سبحانه وتعالى في نفس الوقت، حتى ولو لم يعقد النية على ذلك.

بِحَمْدِهِۦ ﴾[١] فشيء نكرة في سياق النفي تعم كل شيء من موحد وجاحد وحيوان ونبات وجماد.

فكأن الحق تعالى يقول: كل شيء يوحدني ويعبدني بباطنه وإن اختلف أمر ناطقته، وقوله إن عبد النار المجوس إلى آخره، هذا هو التوحيد الحالي العام المشار إليه في الآية: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[٢] أي هذا التوحيد الحالي.

فالقول بأن كل جاحد في الظاهر موحد في الباطن جائز بين قوم يفقهون كلام الله ومواضع إشاراته لا الذين يكذبون بما لم يحيطوا بشيء من أسراره وبيناته، ولكن هذا التوحيد الحالي لا ينفع الكفار بشاهد حديث القبضتين، وحديث الفراغ وجفوف الأقلام فلو كان ينفعهم ما دخل أحد منهم النار فافهم.

ومما أجابوا به عنه أيضا في قوله:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوا قضيت

إن مراده بالردة هنا الردة النسبية لا الدينية نعوذ بالله منها، لأن الرجوع والنزول من مقام المقربين إلى حسنات الأبرار ردة عند القوم ويسمى بالشرك الأصغر.

ومما أجابوا به عنه أيضا في قوله:

فطوفان نوح عند نوحي وإيقاد نيران الخليل كلوعتي
ولولا زفيري أغرقتني أدمعي ولولا دموعي أحرقتني زفرتي
وحزني ما يعقوب بث أقله وكل بلا أيوب بعض بليتي

إن ذلك وقع منه بلسان المحبة والسكر، ولا حرج فيما كان من شطح واستطالة بهذين اللسانين.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

وقد وقع أن خطافا راود خطافة في قبة السيد سليمان عليه الصلاة والسلام وقال لها: لقد بلغ من حبي لك أن لو قلت لي اهدم القبة على السيد سليمان لفعلت، فحملت الريح كلامه إلى السيد سليمان عليه الصلاة والسلام فقال له: ما حملك على المين، فقال: يا نبي الله إني عاشق والعشاق إنما يتكلمون بلسان عشقهم ومحبتهم لا بلسان العلم والعقل، فضحك السيد سليمان عليه الصلاة والسلام من قوله وعذره.

فعلم من هذه القصة أنه لا حرج على المحبين في شطحهم واستطالتهم[1].

ومما أجابوا به عن سيدي علي وفا رحمه الله في قوله: الكامل من يهضم نفسه حتى يزكيه ربه، أن معنى يزكيه ربه أن ينزل الله تعالى في قلوب عباده تعظيمه ويطلق ألسنتهم بمحامده، وإلا فالوحي قد انقطع وما بقى إلا الصحيح وهو أعز من الكبريت الأحمر.

ومما أجابوا به عنه أيضا في قوله: التكليف والاختبار قرينا الاختيار ودعوى الاقتدار فمن عجز وسلم لم يكلف ولم يختبر.

إن معنى لم يكلف أي لم يجد مشقة في التكليف نظير قول بعضهم يصل الولي إلى حد يسقط عنه التكليف[2] فليس مراده نفي التكليف وإنما مراده سقوط كلفة الأعمال ومشقتها من باب أرحنا بها يا بلال فافهم.

ومما أجابوا به عنه أيضا: في قوله: إن علي بن أبي طالب

---

(١) ليس في كل الأحوال ولا على أي حال.

(٢) التكليف لا يسقط عن أحد وفي الحديث الشريف: «رفع القلم عن ثلاث» ليس رفعا للتكليف وإنما عدم مؤاخذة في هذه الحالات لوجود أعذار شرعية، أما القول بسقوط التكليف عن أي ولي فهذا غير صحيح ولا يجوز إطلاقا في شريعة الإسلام.

ﷺ رفع كما رفع المسيح عليه الصلاة والسلام، وسينزل كما ينزل[1].

أن هذا من علم الكشف فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح، وبذلك قال سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى، ولفظه أن السيد نوحًا عليه الصلاة والسلام أبقى من السفينة لوحًا على اسم الإمام علي بن أبي طالب يرفع عليه إلى السماء فلم يزل محفوظًا في ضبائن القدرة حتى رفع عليٌ عليه[2]، وقليل من يؤمن بذلك وبمولد ولده أبي عبد الله المهدي في سنة خمسة وخمسين ومائتين وألف.

ومما أجابوا به عن سيدي عيسى بن نجم خفير البرلس في واقعته المشهورة، وهو أنه توضأ يومًا قبل أذان العصر واضطجع على سريره، وقال للنقيب لا تمكن أحدًا يوقظني حتى أستيقظ بنفسي، فلم يستيقظ حتى مضى عليه سبع عشرة سنة فاستيقظ وعيناه كالدم الأحمر فصلى بذلك الوضوء والذي كان قبل اضطجاعه ولم يجدد وضوءًا[3] أن هذه الواقعة من أحوال الشهود فيمضي على صاحبها عمره كله كأنه لمحة بارق كما يعرف ذلك من ذاق أحوال القوم.

ومما أجابوا به عن قول بعضهم:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله	فقم بها أدبًا بالله بالله
وإن ترى منه أحوالاً توله	عن الشريعة[4] فاتركه مع الله

---

(١) هذا غير صحيح.
(٢) هذا كلام غير صحيح وليس له دليل يسنده، لا شرعًا ولا عقلاً ولا نقلاً.
(٣) هذا كلام غير صحيح وليس له دليل يسنده، لا شرعًا ولا عقلاً ولا نقلاً، ولا يجوز لمن نام على وضوء أن يصلي إذا استيقظ إلا إذا توضأ فما بالنا بمن نام أوقات أو أغمى عليه في غيبوبة استمرت سبعة عشرة عامًا.
(٤) هذه شطحات غير مقبولة ويجب البعد عنها.

إنــه ليــس المــراد في قولــه تولهــه عــن الشــريعة أنــه خــرج عــن الشـريعة كلها، وإنما المـراد أنـه خـرج عـن الشـريعة الـتي يتخلـق بـها المريـد والله أعلـم.

ومما أجابوا به عـن قـول بعضـهم، أن للربوبيـة سـر لـو ظـهر لتعطل نـور الشريعة، أن المـراد بــه الغنــى أو إعطـاء سـر التكويـن وإن العبـد يفعـل مـا يشـاء يعـني لـو أعطـى العبـد ذلـك لتعطلت أفعـال الشـريعة كلها وبطل القـول بالكسب واختـل النظـام.

ومما أجابوا بـه عـن قـول بعضهم النـبي مشـرع للعمـوم والـولي مشـرع للخصـوص، أن معنـى ذلـك أن النـبي مشـرع للعمـوم برسـالته، والـولي مشــرع للخصــوص بولايتــه، لا أن الــولي يشــرع الأحكــام الشرعية فإنـه ليس لـه ذلك، وإنما يبـين مــا أجمـل في السـنة كمـا أن النـبي يبـين مـا أجمـل في القـرآن الكريـم فافـهم.

وقـد فتـح لـك يـا أخـي بـاب الأجوبـة عـن الأنبيـاء عليـهم الصـلاة والسلام وورثتـهم فقـس علـى ذلـك.

الفصل الثاني

سوء الظن

إياكم وسوء الظن بالناس، أي فيما يقبل التأويل فكل أمر قبل التأويل فسوء الظن لا يجوز فيه بإجماع العارفين إلا أن حفت بذلك القرائن فاعلم ذلك.

وإياك وسوء الظن فإنه يورث رؤية النفس ومن لازم رؤية النفس الوقوع في الكبر والعجب وهما الذنبان اللذان أخرج بهما إبليس من الجنة وطرد بهما عن باب الحضرة وباب القرب وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»، وفي الحديث أيضا: «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه».

ومن كلام سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالى لا يؤخذ الفقير ويسلب العالم إلا عند رؤية أحدهما نفسه على إخوانه أو غفلته عن الله.

ومن كلام سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى: ومن رأى نفسه على أحد، حرم من مدده، ومن شأن أهل الله تعالى أنهم يرون نفوسهم على الدوام دون كل أحد.

وإن وقع إنهم أجلسوهم عند النعال فرحوا بذلك، لتسارع الرحمة إلى النزول عليهم في كل مكان ذلوا فيه نفوسهم لأجل الله تعالى، بخلاف صاحب الكبر فإنه يتسارع إليه المقت من الله تعالى.

ومن كلام الشيخ أفضل الدين من رأى نفسه على أحد فقد خرج عن سياج أهل الطريق وحكم غيره فيه.

وقد سمعت سيدي عليا الخواص يقول: من رأى نفسه على أحد فقد تعرض للسلب، ثم حكى أن سيدي محمد بن هارون سلب حاله مرة صبي قراد بسنهور المدينة لما رأى نفسه عليه وفر الناس عنه.

وذلك أنه كان إذا خرج من صلاة الجمعة تبعه أهل المدينة يشيعونه إلى داره فمر يوم جمعة على صبي قراد وهو جالس تحت حائط يفلي ثوبه من القمل ورجلاه ممدوتان فقال الشيخ في نفسه إن هذا الصبي لقليل الأدب يمر عليه مثلي ولم يضم رجليه فسلب لوقته حتى صار لا يعرف الفاتحة[1].

فلما أحس بذلك طلب الشيخ الصبي فلم يجده فدار عليه في البلاد فوجده في رميلة مصر، فلما رآه القراد الكبير قال للصبي أقم رأسك هاهو غريمك قد حضر فلما فرغوا من اللعب بالقرد والدب والحمار سلم عليه القراد الكبير، وقال له تعالى يا سيدي الشيخ مثلك في هذه الشهرة العظيمة بالعلم والصلاح يخطر له أنه خير من أحد من المسلمين أو أن له قدرا أو مقاما، هذا صبي قراد أقرب إلى الله منك.

فقال التوبة: فقال المعلم للصبي إن سيدي الشيخ قد تاب من أن يرى نفسه على أحد فأين وضعت علمه وحاله؟

فقال في قلب السحلية التي كنت أفلي ثوبي على باب جحرها في بلد سنهور المدينة فليذهب إليها وليقل لها يقول لك قريمزان صبي القراد ردي الوديعة التي عندك للشيخ محمد بن هارون.

فخرجت السحلية ونفخت في وجه الشيخ فرد الله عليه عمله وحاله، فمن ذلك اليوم ما رأى الشيخ محمد نفسه على

---

(١) هذه روايات آحاد وليس لها دليل يسندها.

أحد، وكان يقول في نفسه كيف افتخرت على الناس بشيء حملته سحلية في قلبها[١].

قال: ووقع للشيخ حسن المغربي وكان من أهل الكشف أنه ذهب إلى الشيخ محيسن البرلسي بناحية بيلاق[٢] يريد مثاقلته، فلما أقبل على الشيخ محيسن عرف ما في نفسه فقام له وعظمه، وقال له خاطرك علي يا شيخ حسن.

ولما قام قدم له نعله فرأى الشيخ حسن نفسه بذلك على الشيخ محيسن فسلبه الشيخ محيسن حاله كله فلما تحقق ذلك جاءه مستغفرا فقال له أنت الظالم ولم يزل مسلوبا فضاقت عليه مصر فسافر وانقطع عنا خبره[٣].

قال: ومر شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني على الفرغل بن أحمد الأبوتيجي بمصر يوما وكان قد جاء في شفاعة لواحد من أولاد عمه أمسكه السلطان.

فقال ابن حجر في نفسه: ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه مع رؤية نفسه على الفرغل، فقال له الفرغل: قف يا قاضي فوقف فمسكه وصار يضربه ويصفعه على رقبته[٤] ويقول اتخذني وعلمني وسلب عمله ثم حصلت له شفاعة.

---

(١) هذه روايات آحاد وليس لها دليل يسندها.

(٢) كذا في الأصل، وهي بولاق إحدى أحياء القاهرة المطلة على النيل، وكانت قديما ضاحية ترسو عندها المراكب حيث كان النيل أهم وسائل النقل حينئذاك.

(٣) ليس عليه دليل.

(٤) هذا ليس من شيمة العلماء ولا الأولياء ولا الفضلاء وبعض هذه الروايات مشكوك فيها وقد يكون القصد منها الحط من قدر هؤلاء الأعلام، وهناك تناقض واضح بين بعض الأخبار، فسبق أن أحد العارفين إذا أجلسوه بجوار النعال فرح بذلك، بينما غيره يضرب ويصفع ويعاقب عالما جليلا لمجرد أنه حاك في نفسه شيئا عنه ولم يبده له ولا لغيره، وأين هذا الشيخ من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وآيات الصفح والعفو تملأ صفحات القرآن الكريم، وهو ونحن جميعا مطالبون بالأخذ بهذه الآيات والعمل بمقتضاها.

قال: وأخبرني أيضا أن الشيخ أبا الغيث بن كتيلة أحد الأولياء بالمحلة الكبرى رأى نفسه مرة على سيدي أحمد البدوي فسلبه حاله وعلمه، وذلك أنه كان بمصر فجاء يوما إلا بيلاق فوجد الناس مهتمين بأمر المولد والنزول في المراكب فأنكر ذلك.

فقال شخص سيدي أحمد البدوي ولي عظيم، فقال: ثم في المجلس من هو أعلى مقاما منه، فبعد ساعة عزم عليه شخص وأطعمه سمكا، فتصلبت في حلقه شوكة فلم يقدروا على نزولها بحيلة من الحيل، وورمت رقبته حتى صارت كخلية النحل فلم يزل كذلك مدة تسع شهور، وأنساه الله تعالى سبب ذلك.

فلما تذكر قال: احملوني إلى مقام سيدي أحمد البدوي فأدخلوه فشرع يقرأ سورة يس فطعس عطسة فخرجت الشوكة مغمسة دما وذهب الورم والوجع من ساعته ورد إليه علمه وحاله.

قال: وكذلك العلامة ابن اللبان سلب العلم والقرآن الكريم حين رأى نفسه على سيدي أحمد البدوي، فاستغاث بأولياء العصر فلم يقدر أحد منهم يدخل في أمره فدلوه على سيدي ياقوت العرشي.

فذهب إليه بثغر الإسكندرية فجاء معه إلى طندتا فدخل القبة وقرأ ما تيسر من القرآن العظيم ثم كلم سيدي أحمد البدوي في القبر، وقال: أنت أبو الفتيان رد على هذا المسكين رأس ماله، فقال له سيدي أحمد من القبر: بشرط أن يتوب من رؤية النفس والإنكار، فقال: نعم فرد الله عليه رأس ماله وهذا هو سبب اعتقاد ابن اللبان في سيدي ياقوت.

قال: وقد وقع أن بعض المريدين رأى نفسه مرة على

إخوانه فاطلع الشيخ على ذلك فقال قولوا لفلان لا يجالسنا فأخبروه بذلك فساق ذلك المريد على الشيخ فقال الشيخ ما يطيب خاطرنا عليه إلا أن قبل رجل أقل الناس، فاعلموه بذلك فذهب إلى يهودي أو نصراني فقبل رجله.

وجاء إلى إخوانه فأخبرهم فخبروا الشيخ بذلك فقال لهم: من أين ثبت عنده أن اليهودي أدنى الناس، هل اطلع أنه يموت على كفره فضاق الحال على ذلك المريد حتى تداركه لطف الله تعالى ببعض أوليائه فقال له الإشارة إليك يا ولد هو أقل الناس من يخطر بباله أنه خير من أحد من المسلمين قبل رجلك وشيخك يقبلك ففهم الإشارة وندم وذهب إلى الشيخ فقبله.

فاعلم ذلك يا أخي وإياك وسوء الظن فإنه يورث الاستخفاف، وهو ضد التعظيم بأولياء العصر وعلمائه وفي الحديث «ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق ذو الشيبة في الإسلام وذو العلم وإمام مقسط».

ومن كلام الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: «أعرف الناس بالله تعالى أشدهم حياء وتعظيما لأهل لا إله إلا الله».

ومن كلام الشيخ نجم الدين الكبرى، من عظم الناس لأجل الله عظمه الله بين الناس وصاحب العكس بالعكس.

ومن كلام أبي بكر الترمذي، ما استخف أحد بأحد إلا نقص من إيمانه ومعرفته بقدر ما استخف أو أكثر.

ومن كلام ابن المبارك من استخف بالإخوان ذهبت مروءته، ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالأولياء أو العلماء ذهبت آخرته.

والاستخفاف بهم أي بأولياء العصر وعلمائه يوقع في معاداتهم، وفي

معاداة الأولياء والعلماء فوات الخير وحصول المقت والضير.

وذكر الشيخ محيي الدين أن معاداة الأولياء والعلماء العاملين كفر[1] عند الجمهور، وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: من عادى أحدا من الأولياء والعلماء خالفه ضرورة وفي مخالفة الولي أو العالم العامل الضلال والهلاك، وقال من حرم احترام أصحاب الوقت فقد استوجب الطرد والمقت.

وقال من حرم احترام أصحاب الوقت فقد استوجب الطرد والمقت، وقال من اعتقد الأولياء والعلماء الماضين وأنكر على أولياء زمانه وعلمائه فهو كبني إسرائيل، صدقوا بالسيد موسى ﷺ حين لم يروه، وكذبوا بنبينا ﷺ حين رأوه.

وهو ﷺ أفضل وأعظم من السيد موسى ومن سائر الأنبياء والمرسلين بيقين، وإنما كان ذلك حسدا منهم وعدوانا وشقاوة.

وقال اليافعي: عليك بالاعتقاد في أهل عصرك من أولياء وعلماء، وإياك أن تكون ممن يصدق بأن لله أولياء وعلماء عاملين ولكن لا يصدق بأحد معين، فإن مثل هذا محروم من الإمداد، لأن من لم يسلم لأحد معين لم ينتفع بأحد أبدا.

وقال سيدي علي الخواص: من شرط الفقير عدم عداوته لأحد من مشايخ عصره وعلمائه الذين هم أقران لشيخه، فكما يعتقد صلاح شيخه ويؤمن بصحة طريقه، فكذلك يعتقد صلاحهم ويؤمن بصحة طريقهم.

وأما تخصيص شيخه بكثرة الاجتماع به فلكون نصيبه في الطريق جعله الله له على يديه.

---

(١) ليس المقصود هو كفر الاعتقاد لن ذلك يخرج الشخص من الإسلام، ولكن ربما يريد الشيخ الأكبر كفر حقهم وفضلهم، اي جحدهم ذلك.

وقال أيضا: كل من كان على كراهة لأحد من العلماء فقد خالف أمر الله فإن الله تعالى قد أمرنا بطاعة أولي الأمر منا وهم العلماء ومن كره أحدا منهم فقد خرج عن طاعته بيقين.

وقال: إياك ومعاداة الأولياء والعلماء والنظر إلى مساوئهم، فربما جرك ذلك إلى القدح فيهم، والقدح في علماء الإسلام مضاد لأمر الله لنا بإجلال العلماء وإكرامهم فمن قدح فيهم فقد حط مقام من رفع الله قدره، وتلك جراءة عظيمة.

وقال: ليس أحد من الأمة أحب إلى سيدي رسول الله ﷺ من العلماء لأنهم حملة شريعته، وأمناؤه على أمته، فمن أبغض عالما فقد أبغض من أحبه رسول الله ﷺ ومن كان كذلك فهو عدو لرسول الله ﷺ وعدو لله عز وجل.

وقال: من أشد مكائد الشيطان بالعامة أن يبغضهم في العلماء، لأنهم إذا أبغضوهم عدموا الإصغاء إلى قولهم فضلوا وأضلوا.

وقال: من اعتقد أنه ينال حظا من الله لقرابته من أوليائه، مع عدم صلاحه ومخالفته لطريقتهم، ومع إساءة أدبه مع أحد منهم فقد كذبك في زعمه، فكما تجب محبة الرسل كلهم وإن اختلفت شرائعهم فكذلك الأولياء تجب محبتهم كلهم وإن اختلفت طرقهم.

وكما أن من آمن بالأنبياء والمرسلين إلا واحدا منهم لا يصح إيمانه فكذلك من اعتقد الأولياء كلهم إلا واحدا منهم بغير طريق شرعي، لا تصح محبته ولا يفيده ذلك الاعتقاد شيئا، وذلك لأن الرسالة واحدة لا تتبعض، كما هو الأمر في التوحيد فإنه لا يقبل الاشتراك أبدا وطريق الولاية التي يأمر بها الأشياخ مريديهم هي طريق الرسالة التي يأمر بها

الرسل أممهم فليس عند الأولياء تشريع من قبل أنفسهم وجميع ما يدعون به الناس إنما هم نواب فيه عن الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنهم هم الذين أثبتوهم فمن رد دعوة ولي فقد رد دعوة نبي ذلك الولي وذلك كفر.

فاعلم ذلك وإياك وسوء الظن فإن يجر إلى الوقوع في التجسس وهو البحث عن عيوب الناس لأجل تحقيقها وقد عده العلماء من أكابر الذنوب وفي الحديث: «من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف رحله».

وقد كان الحسن البصري: يقول إياكم والتجسس فوالله لقد أدركت ناسا لا عيوب لهم فتجسسوا على عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوبا.

والتجسس يجر إلى الوقوع في الغيبة التي ثبت تحريمها بالكتاب والسنة وهي من أقبح الذنوب وأكثرها انتشارا في الناس والسالم منها في هذا العصر يكاد أن لا يوجد.

ومن كلام الإمام سفيان بن عيينة: إذا كانت نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضي، فكيف بصاحب الغيبة؟ فإن الدين يقضي والغيبة لا تقضي فلو أن شخصا أخذ مال شخص ثم تورع فجاء به بعد موته إلى ورثته لكننا نرى أن ذلك كفارة له.

ولو أنه اغتاب إنسانا ثم تورع وجاء بعد موته إلى ورثته، وإلى جميع أهل الأرض، فجعلوه في حل، ما كان في حل، فعرض المؤمن أشد حرمة من ماله.

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي: مما يوقف المريد عن الترقي، ويحجب المنتهي عن الاجتماع بالنبي ﷺ، وقوع أحدهما في غيبة أحد من المسلمين أو في سماعها.

ومن كلام سيدي علي الخواص: إياكم والغيبة فإنها أعسر الذنوب، وهي لا تختص باللسان بل تكون في كل شيء يفهم منه غرض يكرهه المذكور ولو بلغه أو سمعه.

ومن كلام الشيخ أفضل الدين: إياكم والاستهانة بسماع الغيبة، فإن المستمع شريك القائل، وإياكم والاستهانة بغيبة القلب، فإن الغيبة كما تحرم باللسان كذلك تحرم بالقلب، وقد أنكر بعضهم تسمية ما يخطر بالقلب من الظنون السيئة غيبة.

وقال قد غلط من سمي خواطر القلب السيئة التي تتعلق بالناس غيبة، فإن الغيبة تكون باللسان وما ألحق به من كتابة وإشارة وحركة وتعريض ومحاكاة ونحو ذلك من الأفعال الظاهرة.

وقد أتى التفريق بين الظن والغيبة من حيث التسمية في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[2].

وقد حد العلماء الغيبة بحدود أخصرها ما بينه رسول الله ﷺ في عدة أحاديث وهو: «أن تذكر أخاك بما يكرهه» لو بلغه أو سمعه وإن كنت صادقا سواء كان ذلك في دينه أم بدنه أم دنياه أم خلقه أم ثوبه أم مركوبه أم في نفسه أم ولده أم زوجه أم عبده أم أمته أم داره أم فيما يتعلق به من حركة وسكون وطلاقة وعبوسة.

نحو قولك فلان كثير النوم، أو وسخ الثوب، أو وساع الكم، أو طويل الذيل، أو كبير العمامة، أو كثير الكلام، أو عجول، أو أكول،

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٢.

أو يغتاب الناس، أو يزاحم على صحبة الأكابر، أو كثير السعي على الوظائف، أو محب للدنيا، أو يحب من يعظمه أو فلان أعظم منه أو أكثر أدبا.

وقد دخل مرة طبيبان على سفيان الثوري فوصفا له شيئا، فلما خرجا قال لولا أخشى الغيبة، لقلت أحدهما أعرف بالطب من الآخر، قلت: ينبغي للعبد أن يخاف من الغيبة التي لم تبلغ صاحبها أكثر من التي بلغته، فإن الله ولي من لم تبلغه غيبته، وأن يكثر من الندم والاستغفار وأن يقرأ أم القرآن وسورة الإخلاص والمعوذتين، ويهدي ثوابهن في صحائف من اغتابه.

فإن الشيخ أبا المواهب الشاذلي رأى النبي ﷺ في المنام وأمره بذلك وقال: إن الغيبة والثواب يقفان بين يدي الله تعالى، وأرجو أن يتوازيا، والغيبة تجر إلى الوقوع في الزور وهو الكذب، وفي الحديث: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وحج واعتمر وقال أنى مسلم من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن شيئا أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، كان يهجر الرجل على الكلمة من الكذب الشهرين والثلاثة.

وقال الشافعي: الكذب كالميتة لا يباح منه شيء إلا للضرورة، ومن كلام الشيخ أفضل الدين: إذا دعي أحدكم إلى طعام وهو صائم فليقل إني صائم كما ورد، فإن الصدق أنجى من المعاريض، وكان يقول لخادمه: إذا طلبه أحد ليس له ميل إلى لقائه قل: ما هو هون، يريد الهاون الذي يدق فيه حوائج الطعام.

وكان بعضهم إذا طلبه أحد وهو في بيته يقول للخادم قولي

لـه انتظـره في المسـجد، وبعضـهم كـان يعمـل دائـرة ويقـول للخـادم ضعي إصبعك في هذه الدائرة وقولي ما هو هنا.

وكـان بعضـهم إذا أنكـر مـا قالـه يقـول إن الله ليعلـم مـا قلـت مـن ذلـك مـن شـيء فيوهـم النفـي بحـرف مـا النافيـة وهـو يريـد مـا الاسميـة.

قلت: قد علم من الوصيـة إن من سلم من سوء الظن سلم من التجسس، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبـة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور.

وذلـك أي مـا ذكـر مـن رؤيـة النفـس والاسـتخفاف بأوليـاء العصـر وعلمائـه ومعاداتـهم والتجسـس والغيبـة والكـذب موجـب للتخلف عن درجة الأوليـاء والصـالحين.

فإيـاك يـا أخـي وسـوء الظـن فإنـه بـاب كبـير مـن أبـواب الشـر وقـد حذرنـا الله منـه في كتابـه العزيـز فقـال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾[1]، وفي الحديث من صحيح مسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» وأعاد بعضهم الوضوء من وقوعه في سوء الظن وكذلك الصوم وقال أنه كالغيبة.

ومن كلام أبي محمد محفوظ النيسابوري: من ظن بمسلم فتنة فهو المفتون، ومن وزن الناس بميزان نفسه هلك من حيث لا يشعر.

ومن كلام الإمام سهل بن عبد الله التستري أسوأ المعاصي سوء الظن وغالب الناس لا يعده ذنبا ولا يستغفر منه.

ومن كلامه أيضا أصولنا سبعة:

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.

التمسك بالكتاب.

والاقتداء بالسنة.

وأكل الحلال.

واجتناب المعاصي.

والتوبة في كل نفس.

وأداء الحقوق.

وكف الأذى.

قال سيدي أفضل الدين: كف الأذى على نوعين:

أحدهما: كف أذى الجوارح الظاهرة.

ثانيهما: كف القلب عما يخطر فيه من سوء الظن بالناس، فإنه من السموم القاتلة، ولا يشعر به كل أحد لا سيما بالأولياء والعلماء وحملة القرآن الكريم.

تنبيه:

قال بعضهم لكل ولي ستر وأستار، فمنهم من يكون ستره بالأسباب، ومنهم من يكون ستره تلصصه، ومنهم من يكون ستره بالمزاحمة على الدنيا وتظاهره بحب الرياسة والملابس الفاخرة وهو على قدم عظيم وتجريد في الباطن.

ومنهم من يكون ستره بالاشتغال بالعلم الظاهر والجمود على ظاهر النقول حتى لا يكاد أحد يخرجه عن آحاد طلبة العلم القاصرين، ومنهم من يكون ستره كثرة التردد على أبواب الملوك والأمراء والأغنياء، ومنهم من يكون ستره سؤال الدنيا من أبنائها وطلب الوظائف من تدريس وإمامة وخطابة ونحو ذلك.

ومنهم من يكون ستره تظاهره بالسخريات وصفعه لقفاه، ومنهم من يكون ستره حلقه للحيته، ومنهم من يكون ستره تظاهره بالكلام الجافي والألفاظ التي لا يطيق أحد سماعها.

ومنهم من يكون ستره معاشرته للفسقة والأولاد المرد، ومنهم من يكون ستره بلع الحشيشة ونحوها وحال بلعها تقلب له كلا مباحا، ومنهم من يكون ستره جلوسه عند الملاهي[1].

فإياكم والمبادرة إلى سوء الظن فربما يكون من أسأتم به الظن وليا وهو مستتر بشيء من هذه الأستار، فتشتد عليكم العقوبة.

تنبيه آخر:

قال سيدي أفضل الدين لو أن إنسانا أحسن الظن بجميع أولياء الله إلا واحدا منهم بغير عذر مقبول في الشرع عند الله تعالى لم ينفعه حسن ذلك الظن عند الله تعالى، ولذلك لا تجد وليا حق له قدم الولاية، إلا وهو مصدق لجميع أقرانه من الأولياء لم يختلف في ذلك اثنان، كما لا يختلف في الله نبيان، فمن آذى لله وليا بسوء ظنه فقد خرج من دائرة الشريعة.

تنبيه آخر:

قال بعضهم إياك وسوء الظن بمن تراه من الفقراء يختلف الناس في أمره، فتقول: لو كان وليا كاملا ما اختلف الناس في أمره، إذ لا يشترط في كمال الداعين إلى الله تعالى من الأولياء أطباق الناس على تصديقهم، إذ لو كان ذلك شرطا في الكمال لكان وقع لنبينا ﷺ والرسل قبله عليهم الصلاة والسلام، وقد صدقهم قومهم وهداهم الله بفضله، وكذبهم آخرون أشقاهم الله بعدله.

---

(١) بعض هذه الأستار مخالفات شرعية تحرم على المسلم فما بالك بأهل الطريق، ويجب عدم أخذ هذا الكلام على علاته، والاحتكام في ذلك إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فما وافقهما أخذنا به، وما خالفهما تركناه.

ولما كان الأولياء على أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام في مقام التأسي بهم انقسم الناس فيهم فريقين، فريق معتقد مصدق، وفريق منتقد مكذب كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام ليحقق الله بذلك ميراثهم فلا يصدقهم ويعتقد صحة علومهم وأسرارهم إلا من أراد الله تعالى أن يلحقه بهم ولو بعد حين.

وأما المكذب لهم المنكر عليهم فهو مطرود عن حضرتهم لا يزيده الله بذلك إلا بعدا.

تنبيه آخر:

قال بعض العارفين كما أن من خاصية طريق القوم أن الصادق من المريدين إذا دخلها من أول قدم يضعه فيها يعرف جميع اصطلاح أهلها، حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح.

كذلك من خاصية أهلها أن من أنكر عليهم شيئا من أحوالهم أو مقاماتهم بغير دليل شرعي واضح، عوقب بحرمان ما أنكره فلا يعطيه الحق سبحانه له أبدا.

تنبيه آخر:

إياك والاغترار ببعض الأشعار التي ظاهرها يشير إلى مدح سوء الظن والحث عليه، وذم سوء الظن والحذر منه كقولهم:

لا يظن ظنك إلا سيئا	إن سوء الظن من أقوى الفطن
ما رمى الإنسان في مهلكة	غير فعل الخير والظن الحسن

وقول الآخر:

إن أقوى الناس حزما	قاله شيخي وسنه
ما أساء الظن دوما	واقتفى فرضا وسنه

وقول الآخر:

إن ترم عرضا مصونا	من غبار الوصم ديمه
فاجعل الظن دواما	سيئا واتبع عمومه

وقول الآخر:

إن حسن الظن غلطه	موقع في كل ورطه
والذي أضحى جميلا	ظنه لم يسو ضرطه

وقول الآخر:

إن سوء الظن قالوا	حرفة الحذاق فافهم
والذي أضحى جميلا	ظنه ما قط يسلم

فنقول الأول لا يكن ظنك إلا سيئا يعني بنفسك لا بالناس، إذ سوء الظن بالناس لا يجوز مادام الأمر يحتمل التأويل كما تقدم.

وقوله في النصف الثاني إن سوء الظن يعني بالنفس من أقوى الفطن إي الحزم مأخوذ من حديث الحزم سوء الظن.

وقوله: ما رمى الإنسان في مهلكة غير فعل الخير، أي رؤية فعل الخير، فإن من نظر إلى أحواله بعين الاستحسان وقع في العجب والعجب مهلك لصاحبه بلا شك كما ورد.

وقوله: والظن الحسن يعني بالنفس لا بالناس فإن من ظن بنفسه صلاحا صرعته وألقته في المهالك، وفي وصية سيدي عبد القادر الجيلي إياكم أن تظنوا بأنفسكم صلاحا، فقد أغوى إبليس خلقا كثيرا حين ظنوا بأنفسهم الخير والصلاح فوقعوا في أكبر الفواحش وبعضهم أوقعه في عمل الزغل فشنقوه أو نفوه.

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي من لم يحاسب نفسه في كل نفس ويتهمها بالسوء فلا يكتب في ديوان الرجال.

ومن كلام سيدي علي الخواص ليس لإبليس حيلة يوقع بها الفقراء في المعاصي أكثر من ظنهم بأنفسهم الخير والصلاح فيصرعهم من حيث لا يشعرون لأمانهم وعدم حذرهم منه.

ولذلك قال صاحب الحكم لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه اهـ.

وقس باقي الأشعار، وما تسمعه منها على هذه الصفة، على ذلك، وكن من الذين أثنى الله تعالى عليهم في كتابه العزيز بقوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

وقد تكلم القطب الغوث سيدي محمد الحنفي رحمه الله ونفعنا ببركاته يوما وهو جالس على الكرسي في معنى قولهم: يا فقيه فق فاقة، يا صريم الناقة، قلت له قم صل، قام خرى في الطاقة، بكلام أبهر عقول من كانوا في المجلس وأبكاهم وبعضهم زعق وبعضهم تخبط عقله وقد ذكروا بعضه في مناقبه، واذكر لك يا أخي ما يحضرني من ذلك البعض.

قال رحمه الله: معنى قوله يا فقيه فق، أي على أبناء جنسك فاقة أي ولو مرة، وقوله يا صريم الناقة أي زمام الناقة التي هي مطية المؤمن بها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر.

وقوله: قلت له قم صل معناه أنه أمره بالصلاة فقط فزاد على ذلك طاقته من الأذكار والصيام والقيام وغير ذلك من أنواع القربات، ومعنى خرى في الطاقة أي أسرع وبادر وفعل ما أمره به وزاد في الطاعة جهد الاستطاعة التي هي الطاقة وليس المراد بها الكوة المثقوبة في الحائط انتهى.

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ١٧، ١٨.

فانظر يا أخي كيف تكلم الشيخ بكلام حسن على شيء معدود بين الناس من جملة التغزلات السخرية، فسبحان من فتح عين قلوب أوليائه وأوصل الفهم إلى عقولهم فأخذوا الإشارة من معاني الغيب، واتبعوا أحسن القول بحسن ما سبق إلى سرهم وفهمهم كما وقع لشخص من علماء بغداد أنه خرج يوما إلى الجامع فسمع شخصا من شربة الخمر ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شربك ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح الصغار فإن الوقت ضاق عن الصغار

فخرج هائما على وجهه في البرية إلى مكة لم يزل على ذلك الحال إلى أن مات فقد فهم هذا العالم من هذا الشعر ضد ما قصده لافظه، وذلك شأن أهل الله تعالى.

وقد كان سيدي أفضل الدين نفعنا الله ببركته إذا بلغه أن أحدا نقصه في مجلس يذهب إليه ويقبل رجله ويقول له يا أخي ما يجازيك عني إلا الله تعالى فيما يبلغني عنك فإنك نبهتني على نقائصي لأتوب منها، وآخذ حذري منها في المستقبل وحميتني من الوقوع في العجب بأحوالي انتهى.

وربما أن ذلك الشخص المنقص لم يخطر بباله ما حمله سيدي أفضل الدين عليه، إنما قصد محض تنقيصه بين الناس بغضا فيه وحسدا له وعدوانا، وتقدم أنه رضي الله عنه سمع شخصا يحكي أن أشعب الطماع كان يفت الخبز على دخان جاره، فقال شيء لله من مدده، فإنه لولا حسن ظنه بجاره ما فت خبزه على دخانه.

وهذا آخر ما يسر الله تعالى بجمعه على هذه الوصية الوجيزة السنية، وأسأل الله تعالى أن ينفع به من كتبه أو قرأه أو

سمعه، وأن يطهرنا بفضله وكرمه من الرياء والسمعة، وأن يغفر زلاتنا ويستر عوراتنا، ويقيل عثراتنا ويكشف كرباتنا، وأن يجري لطفه في جميع أمورنا والمسلمين.

وأن يصلي ويسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين آمين آمين.

حمدا لمن منح أحبابه حلاوة الطاعة، فقاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الاستطاعة.

وصلاة وسلاما على سيدنا محمد المخصوص بالشفاعة وعلى آله وأصحابه ومن حذا حذوهم إلى قيام الساعة.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- **الشيخ محمد زكي إبراهيم**: أبجدية التصوف، ط. العشيرة المحمدية، ١٤٠٣هـ، القاهرة.

٣- **أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري**: مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. مكتبة النهضة.

٤- **الشيخ زكريا الأنصاري**: نتائج الأفكار القدسية شرح الرسالة القشيرية، ط. الأميرية، بولاق، ١٢٩٠هـ.

٥- **الدكتور أحمد فؤاد الأهواني**: القيم الروحية في الإسلام، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ١٣٨٢هـ.

٦- **الدكتور عثمان أمين**: الجوانية، ط. دار القلب، بيروت، ١٩٦٤م.

٧- **الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن**:

❀ تلبيس إبليس، ط. مكتبة نصير بمصر.

❀ صفوة الصفوة، ط. حيدرآباد، الهند، ١٣٥٥هـ.

٨- **أبو الفضل أحمد علي الكشاني ابن حجر**: لسان الميزان، ط. حيدرآباد، ١٣٢٩هـ.

٩- **عبد الرحمن بن محمد بن خلدون**: المقدمة، ط. لجنة البيان العربي.

١٠- **زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن رجب**: اختيار الأولى في شرح حديث الملأ الأعلى، ط. المنيرية، مصر.

١١- **أحمد بن محمد بن عجيبة الحسن بن عجيبة**: الفتوحات الإلهية، ط. عالم الفكر بمصر.

١٢- **محمد بن علي الطائي بن عربي**: المتوفى سنة ٦٣٨هـ، الفتوحات المكية، ط. بيروت.

١٣- **شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أبي أيوب بن سعد الزرعي المعروف باسم ابن قيم الجوزية**: المتوفى سنة ٧٥١هـ.

❁الروح، ط. نصير بالأزهر.

❁ مفتاح دار السعادة وشعور ولاية العلم والإرادة، ط. السعادة بالقاهرة.

١٤- **عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير**: المتوفى سنة ٧٧٤هـ، تفسير القرآن العظيم، ط. كتاب الشعب بالقاهرة.

١٥- **أبو الفضل محمد بن جلال الدين ابن منظور**: لسان العرب، ط. دار المعارف.

١٦- **الشيخ أبو حفص عمر بن بدر الموصلي أبو حفص**: المغني، ط. الأزهر، ١٤٠٣هـ.

١٧- **أبو محمد عبد الله الأصبهاني أبو الشيخ**: أخلاق النبي وآدابه، ط. دار السعادة بمصر.

١٨- **الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني**: المتوفى سنة ٤٣٠هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ.

١٩- **محمد بن علي بن عطية أبو طالب المكي**: المتوفى سنة ٣٨٦هـ

❁ علم القلوب، ط. مصر، ١٩٦٤م.

❁ قوت القلوب، ط. دار صادر، بيروت.

٢٠- الدكتور عبد الفتاح بركة:

❁ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، ط. مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧١م.

❁ في التصوف والأخلاق، نصوص ودراسات، ط. دار القلم، بيروت.

٢١- الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، ط. القاهرة، ١٩٥٨م.

٢٢- الدكتور محمد كمال جعفر: التصوف طريقا وتجربة ومذهبا، ط. دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠م.

٢٣- أبو صالح عبد القادر بن موسى الجيلاني:

❁ الغنيمة لطالبي طريق الحق، ط. الحلبي، ١٣٧٥هـ.

❁ فتوح الغيب، ط. مكتبة الجندي، بمصر.

٢٤- العارف بالله عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي: مراتب الجود، ط. مكتبة الجندي، بمصر.

٢٥- أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي: المتوفى سنة ٣٢٠هـ

❁ الأكياس والمغترين، تحقيق: الدكتور أحمد السايح، والدكتور السيد الجميلي.

❁ منازل العباد من العبادة، تحقيق الدكتور أحمد السايح.

❁ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تحقيق الدكتور: أحمد السايح.

❁ ختم الأولياء، تحقيق: الدكتور أحمد السايح ، والمستشار توفيق على وهبة.

❋ علم الأولياء، تحقيق الدكتور سامي نصر لطف.

❋ غور الأمور، تحقيق الدكتور أحمد السايح والدكتور أحمد عبده عوض.

❋ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، تحقيق: الدكتور السيد الجميلي، والدكتور أحمد السايح.

٢٦ـ **الدكتورة سعاد الحكيم**: المعجم الصوفي، ط. المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٤٠١هـ.

٢٧ـ **الدكتور محمد مصطفى حلمي**: الحياة الروحية في الإسلام، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

٢٨ـ **أبو سعيد الخراز**: الطريق إلى الله أو كتاب الصدق، ط. دار الكتب الحديثة، ١٩٧٥م.

٢٩ـ **الأستاذ عبد الكريم الخطيب**: نشأة التصوف، ط. مؤسسة الشرق للطباعة، ١٣٨٠هـ.

٣٠ـ **عبد العزيز الدباغ**: الإبريز، ط. محمد علي صبيح.

٣١ـ **الدكتور سليمان دنيا**: مفهوم التصوف، ط. مؤسسة الشرق للطباعة، ١٩٨٠م.

٣٢ـ **الدكتور أبو بكر ذكري**: تاريخ النظريات الأخلاقية، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٧٨هـ.

٣٣ـ **الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح**:

❋ السلوك عند الحكيم الترمذي، ط. دار السلام بالقاهرة.

❋ الفضيلة والفضائل في الإسلام، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

❁ هذا هو الإسلام، ط. دار الثقافة بالدوحة.

❁ عباس محمود العقاد فيلسوفا، رسالة ماجستير، ١٩٨٠م.

٣٤- **أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي السراج**: ٣٧٨هـ، اللمع، ط. مصر، ١٩٦٠م.

٣٥- **الدكتور محمود سعد**: التصوف في تراث ابن تيمية، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

٣٦- **ابن عطاء السكندري**:

❁ تاج العروس على هامش التنوير، ط. القاهرة.

❁ شرح الشيخ الرندي على الحكم، ط. البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ.

٣٧- **أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي**: ١٤١٢هـ، طبقات الصوفية، ط. القاهرة.

٣٨- **شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله**: ٦٣٢هـ، عوارف المعارف، ط. مصر ١٩٣٩م.

٣٩- **الدكتور الشاذلي**: مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة، رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة.

٤٠- **الدكتور محمد جلال شرف**: أعلام التصوف في الإسلام، ط. دار الجامعات المصرية بالإسكندرية، ١٩٧٦م.

٤١- **الدكتور محمد حسن الشرقاوي**:

❁ ألفاظ الصوفية ومعانيها، ط. دار المعرفة بالإسكندرية.

❁ نحو علم نفس إسلامي، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٢ـ أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني:

- الطبقات الكبرى، الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح · المستشار توفيق على وهبة
- تنبيه المغترين، الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح · المستشار توفيق على وهبة
- لطائف المنن والأخلاق، ط. عالم الفكر بمصر.

٤٣ـ الدكتور أحمد محمود صبحي: التصوف وإيجابياته وسلبياته، ط. عالم الفكر، الكويت.

٤٤ـ الأستاذ حامد صقر: نور التحقيق، ط. دار التأليف بمصر، ١٣٦٩هـ.

٤٥ـ الدكتور جميل صليبا: المعجم الصوفي، ط. دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م.

٤٦ـ حسام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل طاش كبرى زاده: ٩٦٢هـ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط. الاستقلال الكبرى بمصر.

٤٧ـ مصطفى بن محمد الصغير العروسي: إنتاج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية، ط. بولاق، ١٢٩٠هـ.

٤٨ـ الدكتور مصطفى عبد الرزاق ولوي ماسينون: الإسلام والتصوف، ط. دار الشعب، ١٩٧٩م.

٤٩ـ الدكتور أبو العلا عفيفي: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، ط. عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٤هـ.

٥٠ـ الأستاذ عادل العوا: المذاهب الأخلاقية، ط. بيروت.

٥١ـ الأستاذ أحمد توفيق عياد: التصوف الإسلامي، ط. الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م.

٥٢- **الأستاذ عبد القادر عيسى**: حقائق عن التصوف، ط. مطبعة البلاغة، حلب، ١٣٩٠هـ.

٥٣- **محمد بن محمد الغزالي**:

❀ ثلاثة رسائل في المعرفة، تحقيق الدكتور محمود حمدي زقزوق.

❀ القسطاس المستقيم.

❀ المنقذ من الهلاك.

❀ منهاج العابدين.

٥٤- **الدكتور محمد غلاب**: التنسك الإسلامي، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٥٥- **الدكتور قاسم غنى**: تاريخ التصوف في الإسلام، ط. النهضة المصرية، ١٩٧٠م.

٥٦- **الدكتور يحيى هاشم فرغل**: أصول التصوف في الإسلام، ط. الجيلاوي، ١٤٠٤هـ.

٥٧- **عبد القادر القاشاني**: شرح نصوص الحكم، ط. عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٦هـ.

٥٨- **أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري**: توفي سنة ٤٦٥هـ، الرسالة القشيرية، ط. القاهرة.

٥٩- **الدكتور جابر قميحة**: المدخل إلى القيم الإسلامية، ط. دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٤هـ.

٦٠- **أحمد ناجي القيسي**: كتاب فريد الدين العطار النيسابوري ومنطق الطير، ط. جامعة بغداد، ١٣٨٨هـ.

٦١- **أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي**: ٣٨٠هـ، التعرف لمذهب أصول التصوف، ط. مصر، ١٩٦٠م.

٦٢- **الدكتور زكي مبارك**: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ط. المكتبة العصرية، بيروت.

٦٣- **أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي**: ٢٤٣هـ، العقل وفهم القرآن، ط. دار الكندي، بيروت، ١٩٧١م.

٦٤- **الدكتور عبد الحليم محمود**:

❁ المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلي، ط. دار الكتب الحديثة.

❁ فلسفة ابن طفيل، ط. الأنجلو المصرية.

❁ الفيلسوف المسلم، ط. الأنجلو المصرية.

٦٥- **الدكتور محمد مصطفى**:

❁ الرمزية عند محيي الدين بن عربي، رسالة دكتوراه بمكتبة الدكتور محمد مصطفى.

❁ علم التصوف، ط. دار السعادة بمصر، ١٤٠٣هـ.

٦٦- **السيد محمود أبو الفضل المنوفي**:

❁ التمكين في شرح منازل السائرين، ط. دار نهضة مصر، ١٩٦٩م.

❁ جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف، ط. الحلبي القاهرة، ١٩٦٧م.

٦٧- **الدكتورة عائشة يوسف المناعي**: أبو حفص عمر السهروردي حياته وتصوفه، رسالة ماجستير، مكتبة كلية الدراسات الإسلامية بنات، جامعة الأزهر.

٦٨- **الدكتور عامر النجار**: التصوف النفسي، ط. دار المعارف بمصر، ١٤٠٥هـ.

٦٩- **الدكتور عبد المجيد النجار**: العقل والسلوك في البنية الإسلامية، ط. تونس.

٧٠- **علي بن عثمان الجلابي الغزنوي**: ٤٦٩هـ، كشف المحجوب، ط. القاهرة وبيروت.

٧١- **أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي**: منازل السائرين إلى الله عز شأنه، ط. الحلبي، ١٣٨١هـ.

٧٢- **أبو عبد الله اليافعي**: نشر المحاسن الغالية، ط. الحلبي.

